

FROM THE AUTHOR OF "STORY OF SOMEONE"

واحد منا

FIRASS
JUBRANE

One of Us Is Lying About Who He Is.



One of Us Is Lying About Who He Is.

FIRASS JUBRANE

2026

All the events in this story are inspired by fiction and any resemblance to this events, personalities or names it is coincidence no more.



All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

المهداة

إلى كل غريبٍ ظنَّناه بعيدًا عنا،

فاكتشفنا أنه كان طوال الوقت...

واحدًا مِنَّا.

جوبا

The scariest question isn't who **he is.**

It's whether he's **real.**

مقدمة

ليس كل من يعيش في بيتٍ يملك بيتاً.
وليس كل من يبدو وحيداً هو الوحيد فعلاً.
نظن أننا نعرف أنفسنا بما يكفي: أَسْمَاؤُنَا، مفاتيحنا، عناوين بيوتنا، الأشياء التي نخاف منها والأشياء التي نحبها. نحفظ أوراقنا الرسمية في الأدراج، وننام مطمئنين إلى أن هذه التفاصيل الصغيرة كافية لإثبات وجودنا.
لكن ماذا لو لم تكن كافية؟

ماذا لو استيقظت ذات صباح، فوجدت في بيتك فنجاناً لم تشرب منه، أو مفتاحاً لا تعرف بابَه، أو أثر جسدٍ على كرسيك لم يجلس عليه أحد سواك؟ ثم، في مساءٍ لا يشبه غيره، وجدت نفسك تتحدث إلى شخصٍ يقف أمامك، يعرف عنك أشياء لم تخبر بها أحداً؟

ستبحث عن تفسير، بالطبع. فالإنسان لا يحتمل الفراغ بين السبب والنتيجة؛ إن لم يجد تفسيراً، اخترعه. يسمّي الخوف مرضاً حين يعجز عن فهمه، ويسمي الغريب وهماً حين لا يعرف من أين جاء.

وربما لهذا نخاف من فقدان عقولنا أكثر مما نخاف من فقدان أجسادنا. فالجسد يمكن أن يمرض، أما حين تصبح ذاكرتك نفسها موضع شك، وحين تبدأ عيناك ترى ما لا يراه أحدٌ سواك، وحين يصبح السؤال البسيط، "هل حدث هذا فعلاً؟"، سؤالاً لا تملك له جواباً، فأنت لا تفقد شيئاً واحداً. تفقد المحكمة التي كنت تحاكم بها العالم كله.

هذه حكاية بيتٍ يبدو أنه يحمل ذاكرة أطول من صاحبه الجديد. حكاية رجلٍ اشترى شقة ليكون فيها، أخيراً، وحده تماماً كما اعتاد أن يكون طوال حياته، فوجد أن الوحدة نفسها ربما لم تعد ملكه كاملاً.

هل هناك من يشاركه هذا المكان فعلاً؟ أم أن ثمة شيئاً في داخله، شيئاً ورثه بلا اختيار، بدأ أخيراً يطالبه بحسابٍ لم يُسدّد؟

كرسيّ قديم يبدو حساساً أكثر من اللازم تجاه من يجلس عليه. قطعة تتصرف وكأنها تعرف المكان أفضل من صاحبه. مرآة لا تكتفي أحياناً بأن تعكس وجهاً واحداً. وأبوابٌ تُغلق بكل الأقفال الممكنة، دون أن يشعر صاحبها، رغم ذلك، بأنها أُغلقت فعلاً.

فلا تبحث في الصفحات القادمة عن بطلٍ كامل، ولا عن شريرٍ واضح، ولا عن إجابةٍ سهلة، ولا حتى عن يقينٍ بأن ما سيُروى لك حدث كما تراه العين التي تحكيه.

ابحث فقط عن الخوف الذي يشبه خوفك. عن الوحدة التي أخفيتّها يوماً خلف انشغالك. عن البيوت التي عشت فيها دون أن تشعر أنها لك حقاً.

ربما يكون أخطر ما في هذه الحكاية أنك لن تعرف، حتى النهاية، أين ينتهي الرجل الذي تعرفه، وأين يبدأ ذلك الآخر...

الذي قد لا يكون، في نهاية الأمر، سوى واحدٍ مثلاً.

فراس جبران

15-08-2026





Copyright © 2026 Frass Jubrane. All rights reserved.

الفصل الأول

النظام





كان الظلام في الغرفة ثقیلاً ومكثراً، لا یبددُ ظلمته سوى خیط ضئیل من ضوء الشارع المیت، يتسللُ من ثُغرة ضيقة في الستارة المخملية القاتمة، فيرسمُ على الجدار المتهالك خطّاً بارداً يتذبذب كلما مرت سيارةٌ في الأسفل. لم يكن ثمة صوتٌ يكسر وحشة المكان سوى تنفسٍ هادئٍ ومننظم، صادرٍ عن جسدٍ غارقٍ في النوم، لا يدرك أن هناك عینین تطاردانه في الظلمة.

وقف ذلك الشكّل عند حافة الفراش بلا حركة، شاخصاً كظلٍّ اقتطع من حجر. في يده سكينٌ حادة، طويلة النصل، باردة، لا تلمع لغياب الضوء، لكنها كانت هناك، ثقیلة كحقيقةٍ مؤجلة، أو كقضاءٍ نافذ صادر من سلطة لا تُرى. ومن جيبه جاء صوتٌ خفيف، معدنيّ هو الآخر، كأن مفتاحاً قديماً صَدَّأً يحتكُ بنسيج الثوب كلما استترقَ خطوة. لم يتحرك كثيراً؛ وقف، نظر، وانتظر، كما يقف محضرٌ محكمة على عتبة متهمٍ لم يُبلغ بذنبه بعد.

قبل ذلك بأشهر، وتحديداً في منتصف شباط القارس، لم يكن في حياة طه ما يشي بأنه سيصير رهيناً لهذا الصمت المريب.

كان شباط يُلقى ببرده اليابس على أزقة المدينة، بينما انكمش طه داخل شقته الواقعة في الطابق الثالث من بنايٍ قديمة. لم تكن الشقة تُشبه بيوت الأحياء؛ بل كانت تبدو كأنها ممر مؤقت أو مكاتب إدارية أُهملت وتأنقها منذ زمن. فقد اشتراها قبل فترة وجيزة عبر سمسار يتحدث بلغة مقتضبة وغير مفهومة يُدعى "أبو خالد"، بفرشها القديم المتهالك الذي تركه صاحبها السابق، الحاج

كامل، ذلك الرجل الذي انمى وجوده فجأة ودون أي إشعار كتابي رسمي. لم يُكلف طه نفسه عناء تغيير كرسيّ واحد أو شراء قماشٍ جديد؛ فقد أكل الصبر سنوات شبابه وهو يجمع ثمنها قرشاً فوق قرش من راتبه التقشفي كمعلم رياضيات، متنازلاً عن كل ما يراه الآخرون بديهيات للحياة: لا رحلاتٍ، ولا مقاهي، ولا ثياباً فاخرة. كان يظن أن الملكية القانونية لستين متراً مربّعاً ستعفيه أخيراً من تقديم كشف حسابٍ يوميٍّ للعالم عن أسباب وجوده.

كان يجلس على المقعد الجلدي المتآكل الذي ورثه مع الشقة، يدكُّ بأصابعه المتيبسة جلدَةً ظفر إبهامه الأيمن بواسطة سبابته، تلك الحركة الآلية النازفة لتنف ما حول الظفر، والتي تصاحبه كلما داهمه توتر مكتوم أو إحساسٌ بأنه مُدانٌ أمام سلطة مجهولة. كانت الشقة بالنسبة إليه ليست مجرد جدران، بل درعاً يُبعد عنه نظرات القضاة والموظفين والمشاة في الشارع. ورغم أن أثاثها يفوح برائحة الخشب القديم والغبار الدفين، إلا أن طه فرض عليها نظاماً صارماً من النظافة والترتيب الوسواسي؛ فكلُّ كوبٍ يجب أن يستقر بزوايته المحددة تماماً وفق إحداثيات لا تقبل التأويل، وكلُّ وسادةٍ يجب أن تُحاذي حافة الخشب بمقدار ميلليمتراتٍ لا تحيد، كأن زاوية انحراف واحدة قد تتسبب في استدعائه للتحقيق.

في السادسة والنصف تماماً، طالع طه الساعةً على معصمه. لم يكن يملك هاتفاً ذكياً، بل هاتفاً قديماً سميّاً بأزرارٍ بلاستيكية متآكلة، خالياً من الكاميرات والتطبيقات، لا يصلح سوى لاستقبال أرقام معدودة أو بلاغاتٍ رسمية اقتضتها الضرورة. ارتدى نظارته ذات الإطار البني البسيط، ثم ألقى بنظرة على الجاكيت الواسع الذي يرتديه؛ كان مقاسه أكبر منه بدرجتين، وربطة عنقه مشدودة بحجمٍ يخنقه قليلاً، لكنه كان يعتقد يائساً أن الجاكيت الفضفاض يمنحه مساحة خفية للتنفس، ويحميه من قبضة العالم ومؤسساته التي تحاول باستمرار تقليص وجوده وإدخاله في قالب ضيق.

وقف أمام المرأة القاتمة بضع دقائق، متسائلاً عما إذا كان ملبسه يُلبّي الحد الأدنى من اللوائح المسكوت عنها للشارع والمدرسة. تفحص طيّات البنطال، ومسح بأصابعه ذرة غبارٍ خيالية عن كتفه الأيسر. وفي تلك اللحظة بالذات، بينما كانت عيناه مثبتتين على انعكاسه، مرّ خلف كتفه في المرأة ما بدا كاهتزازٍ خفيفة في هواء الغرفة، ظلٌّ عابرٌ لا شكل له، كأن شيئاً تحرك ثم توقف فوراً حين شعر بأنه مرئي. استدار طه بسرعة، قلبه يخفق فجأة، لكن الغرفة خلفه كانت فارغة تماماً، ساكنة، لا شيء فيها سوى الخزانة والستارة التي لم تهتز أصلاً. وقف لحظة يراقب سكونها المطلق، ثم عاد إلى المرأة مقتنعاً بأن الأمر لم يكن سوى انعكاس ضوء الشارع المتذبذب على الجدار، وأن عينيه، المتعبتين من قلة نوم لم يعد يذكر سببها، بدأتا تختلقان أشكالاً لا وجود لها. كان يعلم تماماً أن الخطأ البسيط في المظهر لا يمرُّ مرّ السحاب في مكان تعوّد على تفتيش النوايا، وأن أدنى خروج عن الهيئة المعتادة سيعني على الفور فتحه ملفاً جديداً ضد صلاحيته لممارسة مهنته.

اتجه إلى المطبخ لإعداد كوب الشاي بالأعشاب، فهو لم يذق طعم القهوة قط، وكان يرى في مرارتها نكوصاً غير مبرر وميلاً مشبوهاً نحو منبهاتٍ لا تليق بحياة منضبطة، لكن قدميه تسمرت عند العتبة.

في حوض المطبخ، وجد طبقاً زجاجياً غريباً لم يره من قبل، تعلوه بقايا طعامٍ جافة ومجهولة المصدر، تلتصق بقاعه كأنها قشرة متحجرة.

تجمد طه في مكانه. انحبست الأنفاس في صدره وشعر ببرودةٍ مباغتة تسري في أطرافه. طهو الطعام لم يكن جزءاً من جدولهِ الفردي، وهذا الطبق لم يكن يملك مثله في أدراجهِ قط. تراجع خطوة إلى الوراء، وضغط بظهره على إطار الباب وكأنه يحمي ظهره من مجهول، بينما همس في سرّه بنبرةٍ متقطعة يملؤها الذعر: "يا إلهي.. ما هذا؟.. من أين أتى هذا الطبق؟"

جفَّ حلْفُه، وتسارعت أنفاسه حتى شعر أن صدره يضيق. أغمض عينيه واسترجع ليلته الفائتة بدقة الموظف الذي يُراجع سجلًا ماليًا؛ هل أكل شيئًا بعد الساعة السابعة؟ لا، لقد تناول حساءه الخفيف وغسل صحنه بعناية. تجمدت أصابعه على حافة الحوض، وبدأت سبابته تحكَّ جلدة الإبهام بقسوة حثيثة حتى كادت تدميها. حاول إقناع نفسه بأن تعب التصحيح المدرسيّ أورثه هذا النسيان، أو أن هناك بنودًا في ذاكرته جرى تعديلها دون موافقته. غسل الطبق برغوة كثيفة وشطفه بالماء حتى أحدث زجاج الطبق صفيّرًا جافًا. ثم أعاد الصحن إلى رفّه المحدد، وظل يراقبه لمقاسة كاملة للتأكد من أنه استقر في وضعه النظامي ولم يطرأ عليه أي تحول آخر.

طنينُ الهاتف القديم على الطاولة جعله يجفل، مفزوعًا كما يجفل المتهم من وصول استدعاءٍ قضائيٍّ مفاجئ. ظهر اسم "العمة وفاء" على الشاشة الصغيرة ذات الضوء الأخضر الباهت. مسح ذقنه بيدٍ ترتجف قبل أن يرفع السماعة.

"كيف حالك يا طه؟ هل أنت بخير؟... هل تأخذ دواء التوازن؟"

جاء صوت عمّته محملاً بقلقي وثقلٍ ومُصّرٍ، أثار في صدره ضيقًا حادًا. ومن خلف صوتها، في مكانٍ ما بين التشويش الخافت للخط، ظنّ طه أنه سمع صوتًا آخر، طقّة معدنية صغيرة جاءت من داخل شقته لا من الهاتف، كأن شيئًا لمس شيئًا في غرفة أخرى. أبعد السماعة عن أذنه للحظة، أصغى إلى صمت الشقة خلفه، فلم يسمع شيئًا سوى نبض دمه في أذنيه، فأعاد السماعة مقتنعًا بأن الطقّة جاءت من الخط نفسه، من تشويش الاتصال، لا أكثر. لم تكن العمة تقصد إهانته؛ بل كانت تمارس دور مفتش السلطة العائلية الممتدة، وتخشى عليه من ذات المأساة التي أودت بحياة والده، حين باغته شحناتٌ كهربائية زائدة في الدماغ، وانتهى به الأمر صريع نوبةٍ صرعية حادة مات على إثرها وسط نظرات الدهشة من جيرانه. كانت العمة تسأل لتطمئن وتضمن أنه لا يزال يُمارس وجوده السوي وفق الجدول الموصى به طبيًا، لكن السؤال بالنسبة لـطه كان أشبه بمحاكمة علنية تُذكره بدماء أبيه العاصية المسكوبة في عروقه.

"أنا... أنا بخير يا عمتي، الشحنات... أقصد التوازن... كل شيء في نظامه"، تتأنا طه بصوتٍ متلعثم، وضغط بأصابعه على طاولة الخشب كمن يستند إلى منصة الاستجواب. أنهى المكالمة ببدايةٍ عجولة دون أن ينتظر تعقيبًا، وساد الصمتُ الشقة مجددًا، صمتٌ يشبه هدوء قاعات المحاكم قبل النطق بالحكم.

استدار ليتجه نحو الباب، غير أن عينيه وقعتا على طاولة الصالون. ثمة فنجانٌ خزفيٌّ أبيض يراه لأول مرة، تستقر في قاعه بقايا قهوةٍ سوداء جافة، وقد انطبعت على حافته دائرةٌ داكنة.

توقف طه، وكان صوت بلعه لريقه أشبه بسقوط حجر في بئر جافة. لم يسبق له أن اشترى القهوة، ولا يملك مسحوقها في أدراجهِ، ولم يدخل شقته زائرٌ واحد منذ أن تسلم مفاتيحها من أبي خالد. تقدم بخطواتٍ خشبية، رفع الفنجان ببطء وكأنه يحمل قنبلة موقوتة أو إثبات جريمةٍ لا يعلم كيف ارتكبت، واستنشق رائحته؛ كانت رائحة قهوةٍ محروقة. أسرع إلى المطبخ، وغسله بقسوةٍ وسواسية، ممسحًا كل أثرٍ للمادة السمراء، وكأنه يمدح دليل اتهام يخشى أن تُوجّه إليه لائحةٌ ادعاءٍ به في أي لحظة أمام لجنة تحقيق لا ترحم.

خرج إلى الشارع، حيث كان البردُ القارس يشرط الوجوه. كانت بنايات الشارع تتراص جنباً إلى جنب ككتل خرسانية جهمة، تنظر نوافذها المغلقة إليه بشك، كأن جميع السكّان والمشاة على علم بسلسلة الخروقات الصغيرة التي وقعت داخل شقته هذا الصباح. استقل سيارته القديمة ذات اللون الباهت، وانطلق نحو الثانوية الحكومية.

في الممرات المرصوفة بالبلاط البارد، كان طه يسير محاذيًا للجدران، ملتزمًا بإيقاعٍ حركي لا لفت فيه للانتباه. وفي الفصل، كان يشرح معادلات الرياضيات بصوتٍ منخفض ومستقيم، مكرّرًا القوانين كأحكام مفروضة لا تقبل الطعن، أمام طلابٍ يرمقونه بنظراتٍ فارغة وباردة كأنهم أعضاء لجنة تحكيم سرّية. عند الخطوات الأخيرة من حل المسألة على السبورة، لمح التلميذ مازن يميل نحو

زميله ويهمس بصوتٍ شبه مسموع: "انظر إليه... لو عطس الأستاذ طه الآن، لخرَجَ الغبارُ الجاف من أنفه وفمه!".

تجاهل طه الهمسة، لكن حنجرته انقبضت. شعر وكأن طلابه يعلمون تماماً أنه كائن من ورق وقوانين، وأن جسده مجرد هيكل بيروقراطي يختبئ تحت جاكيت واسع. وعند خروجه من غرفة المعلمين، اصطدم بوقفة الأستاذ زيدان، معلم الرياضيات الآخر. كان زيدان رجلاً عريض الكتفين، ينظر إلى الوجود بمادية صريحة، ويلمس طه دائماً بعينين تشتعلان بحقدٍ مكتوم؛ فالأستاذ طه هو من يحظى دائماً بالتقييمات الأعلى من الموجهين، واسمه هو المدرج دائماً لإدارة امتحانات الشهادة الثانوية، بينما يظل زيدان في الهامش.

"أهلاً بالأستاذ طه... ما بالك تبدو اليوم كمن استيقظ من قبر؟ هل نسيت أين وضعت أوراق الامتحان أم أنك تحسب النمل في شقتك؟" قالها زيدان بابتسامةٍ متقرِّرة باردة لم تصل إلى عينيه.

تأتأ طه، وتراجعت خطوته للوراء كأن زيدان يحمل تفويضاً رسمياً للاستجواب: "لا أستاذ... الأوراق... كل شيء م... مضبوط يا أستاذ زيدان"، ثم انسحب مخترقاً العمر وهو يحسُّ بظلال زملائه تلاحقه كقضاةٍ في محكمةٍ علنية لا تنتهي، تُسجِّل عليه كل حركةٍ وتعثر.

عقب عودته في الرابعة عصراً، كانت برودة شباط قد بلغت ذروتها. كانت السماء رمادية وثقيلة، كأنها سقفت لمنشأة حكومية عملاقة. أوقف طه سيارته على مسافة قصيرة من البناية، وأطفأ المحرك. ظل جالساً في مكانه لحظات، يحدق في البناية من خلف الزجاج الأمامي، قبل أن يترجل ويغلق الباب خلفه.

خطا بضع خطوات نحو المدخل، لكن الشعور المبهم الذي يطارده منذ الصباح عاد ليدهامه مجدداً؛ إحساسٌ خافت وثقيل بأن هناك عينين تراقبان كل حركة يقوم بها.

توقف، والتفت نحو الشارع.

لم يكن هناك شيءٌ غير عادي للوهلة الأولى: بضعة أشخاص يعبرون الرصيف، سيارة متوقفة أمام أحد المتاجر، ورجلٌ يقف عند الزاوية، يمسك بسيجارتته بأصابع مشدودة برزت من قفازاتٍ صوفية سوداء اللون بلا أطراف، كأنها تبحث عن دفعٍ مفقود.

لكن ذلك الرجل كان الشيء الوحيد الذي أثار شكوكه. لم يكن ينظر إلى طه مباشرة، لكن وقفته كانت تدل على أنه ينتظر أمراً ما. كان رجلاً في مثل عمره تقريباً، يرتدي قبعة سوداء ومعطفاً داكناً فضفاضاً يشبه، على نحوٍ عابر لا يستحق التوقف عنده، طريقة طه نفسه في اختيار مقاسات أكبر من جسده. وحين مرّت بينهما مسافة الرصيف، حملت الريح إليه للحظة رائحة معدنٍ باردٍ ورطوبةٍ قديمة، أشبه برائحة قفلي لم يُستخدم منذ سنوات، قبل أن تبتلعها رائحة المطر القادم. أدار الرجل ظهره قليلاً فور أن التقت عيناها.

ظل طه يراقبه بحذر.

رفع الرجل سيجارته إلى فمه، ينفث دخانها ببطء، ثم تحرك مبتعداً عن البناية بخطواتٍ رتيبة.

خطا طه خطوة إلى الأمام وناداه: "لو سمحت..."

لم يلتفت الرجل، بل واصل سيره بالسرعة نفسها.

تردد طه لحظة، ثم أسرع خطوتين ليلحق به، لكنه بمجرد أن تجاوز السيارة المتوقفة، اختفى الرجل تمامًا وكأنه لم يكن هناك!

نظر إلى نهاية الشارع: لا أحد. تطلع إلى الجهة الأخرى: الشارع فارغ.

بقي واقفًا في مكانه بضع ثوانٍ، يحاول إقناع نفسه بأن الأمر مجرد توهم، وأن الرجل لم يكن يراقب بنياته أصلًا.

ثم، وكي يحسم الأمر، رفع رأسه نحو الطابق الثالث حيث شقته...

فجمد في مكانه: باب الشرفة كان مواربًا!

يتذكر يقينًا أنه أغلقه وقفلَه وفق المعايير الثلاثية المعتادة قبل خروجه في الصباح. خفق قلبه بعنف، وصعد الدرج بخطواتٍ متثاقلة، تحفها خشية جارفة من أن الشقة أصبحت مسرَّجًا لإجراءات لا يستطيع الاعتراض عليها. وفي الطابق الثاني، باغتته الجارة أم زهير.

كانت أم زهير امرأةً في ستينياتها، ضخمة الجثة، تلفٌ كتفيها بشالٍ صوفيٍّ رمادي، وتضع على عينيها نظارةً سميكة تجعل حدقتها تبدو كخرزتين متسعيتين وتضيفان عليها مظهر مفتشٍ بلدي صارم. يترنح على رأسها شعرٌ مصبوغٌ ببنيٍّ محمَّر، تتسلل من جذوره آثار شيبٍ صريح امتدت لنحو سنتيمترٍ واحد عند البصيلات. كانت تفوح منها رائحة الهيل المغلي والسجائر والرطوبة، وتنتعل خفًا بلاستيكيًا باللون الفيروزي، بينما ينطلق منها صوتٌ أجشٌ مُجَرَّحٌ بفعل التبغ، ينزل بنبرةٍ آمرة لا يمكن الفرار منها.

وقفت في منتصف الدرج، وسدَّت عليه الممرَّ بجسدها المترهل العريض، ثم هزَّت رأسها استنكارًا وقالت بنبرة عتابٍ وتحقيق: "الحاج كامل!... سامحه الله!

كيف يذهب هكذا كاللص في منتصف الليل؟ أربعين سنة عاشها في هذه البناية، أداويه وأحضر له طعامه بعد وفاة المرحومة حنان، ثم يختفي فجأة دون أن يودّع أحداً، أو يترك حتى رقم هاتف نصل به إليه في الخارج! هل هذا تصرف رجلٍ عاقل؟"

وبينما كانت تتحدث، توقفت فجأة عن الكلام للحظة واحدة، وثبتت عينيها الصغيرتين على نقطة ما فوق كتف طه، خلفه مباشرة، في اتجاه باب شقته العلوي، وكأن شيئاً لفت انتباهها هناك، قبل أن تهزّ رأسها بخفة وتستأنف حديثها وكأن شيئاً لم يحدث. لم يجرؤ طه على الالتفات ليرى ما رآته، فقط شعر ببرودة تسري في مؤخرة رقبته.

جفّ طلق طه، وضرب بأصابعه على درابزين الدرج الحديدي، وتأتأ وهو يحاول التملّص منها وشعورٌ بالذنب يغمره رغم أنه لا علاقة له بالأمر: "هو... هو استعجل في السفر يا سيّدي... السمسار... السمسار أخبرني بذلك..."

أطلقت ضحكةً ساخرة مجرّحة كصوت طاحونة قديمة، كأن الكلمة الغريبة على أذنّها أربكت صرامتها لبرهة، وقالت وهي تهزّ يدها المترهلة:

"سيدي؟! لا أحد هنا يناديني بهذا التهذيب المفرط... بالمناسبة، اسمي أم زهير".

ثم عادت لتُضَيّق عينيها الشاخصتين نحوه، وتتابع نبرتها الآمرة دون أن تفقد خيط اندفاعها: "سافر كاللص!" كررتها وهي تتفرّس في وجهه، كأنها تثبت اتهاماً جديداً في صحيفته وتستقرئ من ملامحه مشاركةً مستترة في هذا الاختفاء العبثي.

تجاوزها طه بابتسامةٍ باهتة وإيماءةٍ مرعوبة، وصعد الدرج يسابق أنفاسه، حاسباً كل خطوة كأن السلاسل تقيس وزنه الإجرامي.

في الداخل، أغلق باب الشرفة الموازي فوراً، وقفل الأبواب بكل القوابل والأقفال المتاحة. كان المطر قد بدأ يهطل في الخارج بانتظام رتيب، والصمت داخل الشقة يزداد الخناق عليه. تقدم نحو الثلجة، فتح بابها ليتناول بعض الماء علّه يطفئ الجفاف المتقطع في حلقه.

انسكب الضوء الأبيض البارد للثلجة على وجهه الشاحب. وعلى الرف الأوسط، بين علبة الجبن وحصن الزيتون، كانت تستقر علبة بيرة معدنية.

تجعد طه. لم يكن يشرب الكحول قط، ليس بدافع أخلاقي فقط، بل لأنه يخشى تفكك نظامه الداخلي الذي يضمن بقاءه طليقاً خارج أسوار المشفى النفسي أو المعتقل. جحظت عيناه نحو العلبة الباردة، ووقف أمام الثلجة المفتوحة، والهواء المثلج يلفح وجهه. جلس على الكرسي المجاور، واضعاً يديه على ركبتيه، وظل يحرق في علبة البيرة المتروكة في المكان المحدد بدقة على الرف. استغرق وقتاً طويلاً في مراقبتها، مقتنعاً بأن هذا الدليل المتخفي لم يوضع هناك عن طريق الخطأ، بل أُدرج بفعل لجنة مراقبة غير منظورة تود اختراق نظامه، لإثبات أن ذنبه القديم، ذنب والده أو ذنبه هو، قد حان وقت البت فيه.

وحين نهض أخيراً ليرتدي ثياب نومه، لمح على وسادة الكرسي الجلدي، ذلك الذي لا يجلس عليه أحد سواه، انخفاضاً غائراً كأن جسداً استقر فيه منذ وقت قريب، ثم غادره قبل أن تعود المادة إلى استوائها الكامل. مدّ يده ولمسه؛ كان دافئاً، دفئاً خفيفاً لا يخطئه من عاش وحيداً زمناً طويلاً بما يكفي ليعرف تمامًا حرارة كرسيه حين لا يجلس عليه أحد.

لم يعد الصمت في الشقة صمتاً مجرداً. كان صمتاً مؤسسياً، كان هناك شيء آخر، كائنٌ يتنفس ببطء وراء الجدران، يراقبه، يدوّن ملاحظاته في ملف ضخم، وينتظر لحظة انهياره الكامل ليصدر الحكم بغير استئناف.

الفصل الثاني

الخيطة والدقيق





لم تعد الذاكرة بالنسبة لطف حجة يُعندُّ بها؛ فقد تعلم من وقوفه الطويل أمام السبورة أن أيَّ ثغرة في البرهان تهدم المسألة من أساسها. وكانت شقته تتسرب من بين يديه عبر أدلة مادية لا تقبل التأويل، لكنها تتهرب من قوانين المنطق.

جلس على حافة المقعد الجلدي، ومدَّ خيطًا رفيعًا أسود، من ذلك النوع الذي يرمم به أزرار قمصانه، بين طرفي الإطار السفلي للباب، على ارتفاع لا يتجاوز عشرة سنتيمترات عن الأرض؛ موضِّعًا إياه بدقة حريصة من يُعدُّ فخًا لا يُرى، لا يُقطع إلا بانتهاء صريح. ثم انتقل بنظره نحو عتبة المطبخ؛ فنثر هناك كفاً من الدقيق الأبيض، وراحة يده تهتز وهي ترشُّ المحتوى بانتظامٍ وسواسي ليصنع بقعة ناعمة، هشة، تستقبل أي وطأة غريبة وتطبّعها كأنها سجل اتهام.

وأخيرًا، استقر على هندسةٍ محددة لوضع مفاتيحه على طاولة الصالون؛ المفتاح الكبير ممتدَّ كخط أفقي، والصغير يتقاطع معه من الأعلى بزاوية خمسي وأربعين درجة تمامًا، مستعيرًا بالمنقلة التي يصح بها دفاتر طلابه؛ ليعرف من اللحظة الأولى إن كانت قد جرّكت ولو بمقدار ميليمتر واحد. لم يكن هذا مجرد وسواسٍ طارئٍ في نظره، بل كان إجراءً وقائيًا معقولاً يتخذهُ أي مواطنٍ حريص يُدرك أن ملفه قيد الدرس لدى سلطةٍ مجهولة، وأن التحقيق الذي لم يُفتح رسميًا بعد، قد بدأ عملياً منذ أسابيع.

حين صفا مع تسرّب الضوء الميت للصباح، لم يتجه نحو النافذة ليقيس البرد، بل مشى بخطوات خشبية نحو الباب.

كان الخيط مقطوعًا، كأنما قُصَّ بآلةٍ حادة.

طرفاه المنسلَّان يتذبذبان بفعل الهواء الخفيف المتسلل من شق الباب. وفي بقعة الدقيق الناعم خلف عتبة المطبخ، انغرسَ أثر قدمٍ واحدة، حافية وأكبر من قدمه، مطبوعة بعمق كأن صاحبها تعمد ضغط ثقله هناك لترك بصمة إدارية.

ركع طه على ركبةٍ واحدةٍ دون أن يمس الأرض، فتشنجت عضلة ساقه اليسرى، وامتدت يده لترتفع فوق الأثر دون أن تلمسه. تجمدت أنفاسه في حلقه، وهمس بصوتٍ مبجوحٍ لا يكاد يخرج من شفثيه: "من... من كان هنا؟"

تراجع إلى الخلف مستندًا بكفه على الجدار. تتزاحم في رأسه ظنونٌ مضطربة؛ أهى شقةٌ مسكونة، أم اقتحمها غريب، أم أنه مجرد وهمٍ ينسجه إجهاده؟ حاول صياغة دفاعٍ عقلائي، كما يفعل محام يُرافع في قضية خاسرة أمام نفسه أولًا، بأن هذا لا يثبت شيئًا حارقًا للمألوف؛ فأى شخص يملك نسخة احتياطية قديمة من عهد الحاج كامل، أو عامل صيانةٍ نسي أبو خالد إخطاره بزيارته، أو حتى إحدى الجارات كأم زهير الفضولية التي أعلنت بعظمة لسانها أنها كانت تطأ هذه الشقة يوميًا لخدمة الحاج، يمكن أن تترك أثرًا كهذا... لكن دفاعه انكسر فور أن وقعت عيناه على الكنبه المتآكلة في الصالون.

على مسندها الجلدي، كان ثمة قميصٌ رماديٌّ داكن، متروكٌ بإهمالٍ استفزازي، مقاسه يقترب من مقاسه الفضفاض، طيَّاته مجعدة كأن أحدًا خنقه بكفيه ثم ألقاه ومضى. لم يكن لطه، ولا يملك في خزانته لوثًا يماثله. تقدم نحوه بخطواتٍ متثاقلة، حابسًا أنفاسه، ومسّ طرف القماش بأطراف أصابعه بحذر؛ كان

النسيج يحمل جفافاً غريباً ورائحةً مبهمّة تُشبه رائحة الغبار المكنوم في المستودعات المغلقة.

ولم يكد يسترد أنفاسه حتى التفت نحو الطاولة؛ كانت هندسة المفاتيح قد اختلت تمامًا. لم تكن مفاتيحه تحافظ على زاويتها، بل استقرت بجانب كيسٍ ورقيّ مزقته يدٌ عجولة، تتناثر منه قشور لبّ اليقطين بغزارةٍ مجانية على الخشب المسقوف بالغبار، وعلى البلاط تحته. قشورٌ بيضاء جافة، مكسورة بأسنان، بعضها لا يزال يحمل أثر رطوبةٍ لعباية خفيفة.

شعر طه بغثيانٍ مبالغٍ يسري في معدته. لم تكن المسألة مجرد دخولٍ خفي، بل كانت استهانةً كاملة بملكيتّه، سلوكًا عابثًا يعيد ترتيب المكان دون أخذ إذنٍ من المالك المسجل في الأوراق.

ركع على أربع، وبدأ يجمع القشور واحدة تلو الأخرى بأطراف أصابعه، يحسبها كمن يحصي مخالفاتٍ إدارية: واحدة، اثنتان، ثلاث...

انطلق نحو الحمام بخطى مضطربة، يدقّ في رأسه أملٌ واهنٌ بأن يغسل وجهه بالماء البارد، لعلّ كابوس النعاس ينجلي عن عينيه، ولعلّ هذه الأوهام المزعجة لم تكن سوى بقايا حمّى أو أضغاثٍ يقظة.

أمسك بمقبض الباب بكفٍّ مرتعشة، وضغطه لأسفل ببطءٍ حذر، ثم دفع الباب وخطا بضع خطواتٍ إلى الداخل. لم يكد يرفع رأسه حتى انتفض جسده رعدةً عنيفة، كأنه رأى شيئاً تجسّد في الهيئة الأشدّ عيانيّةً وضراوة: عبوةٌ عطرٍ رخيصة، ذات رائحة حادة تفوح بنفاذيةٍ سوقٍ شعبيٍّ مزعج، ملقاةً على حافة المغسلة، ورذاذها لا يزال متكثفًا على سطح المرأة كأنه استُخدم قبل ثوانٍ معدودة من دخوله.

تجمّد في مكانه، وراح قلبه يخفق بضرباتٍ متسارعة تثقب قفصه الصدري، فيما انقبضت حنجرته وهو يتمتم بذهولٍ مرعوب: "لا... لا، هذا ليس وهماً... العطر ما زال رطباً... من كان في الحمام قبلي؟!"

كانت قطرات الرذاذ على المرأة تقطر ببطء، لتتحدّر معها آخر ذرة شكٍّ لديه، موقظةً حقيقةً واحدة مرعبة: هناك شخصٌ يقاسم الشقة، وكان يطأ هذا المكان منذ لحظات.

قرر طه، بعد أسبوعٍ من هذا التصعيد المنظم، أن يغيّر القفل. لم يكن قراراً انفعالياً بقدر ما كان تصحيحاً إجرائياً لثغرة أمنية واضحة؛ خطوة يمكن لأي إنسانٍ عاقل أن يتخذها لاستعادة انضباط مساحته الشخصية دون أن تُعدّ اعتراضاً بأي خللٍ داخلي.

جاء الفنيّ في صباح يوم عطلته، رجلٌ عجوز بملامح متغضنة ويدين متشققتين تحمّلان رُهم المعدن، يجر صندوق أدواتٍ صدئاً. فتح القفل القديم بعد عناء، ليظهر آلياته الداخلية المتآكلة والملينة بالغبار. ومع تحرك اللسان الحديدي، تصاعدت من قلب الباب رائحة معدنٍ عتيق ورطوبةٍ قديمة تسالت إلى أنف طه فجأة؛ فأعادته للحظة إلى ذات الرائحة التي تشممها في الشارع حين مرّ به الرجل ذو المعطف الداكن. خيّل إليه أنه يعرف هذه الرائحة، أنه يعيش فيها منذ زمن، غير أن الذكرى تبخّرت فوراً مع صوت انغلاق القفل الجديد.

وقّع طه على الفاتورة، وأغلق الباب خلف الفنيّ بارتياحٍ حذر، شاعراً للمرة الأولى منذ أسابيع بأنه استعاد شيئاً من السيادة الإدارية على شقته.

مرّ أسبوعٌ كامل دون أي حادثة. بدأ طه يسمح لنفسه، بحذرٍ شديد، بأن يصدّق أن القضية أُغلقت. عاد إلى جدولهِ الصارم بثقةٍ متجددة، ونام تلك الليالي دون أن يفحص الخيط الذي أعاد مدّه فوق الباب إلا من باب العادة الإدارية.

ثم، في صباح الأحد التالي، وجد الخيط مقطوعاً من جديد.

وفي هذه المرة، لم يقتصر الأمر على قطع الخيط؛ بل كانت آثار أقدام مغموسة بالطحين تنتشر على الأرضية بطريقة عشوائية مريبة، كأن صاحبها قضى ليلته كاملاً يذرع المكان ذهاباً وإياباً، فوق الطحين، ببلادة صريحة ودون خوف أو وجل.

لم يصرخ، ولم يركض، بل وقف أمام المشهد بصمتٍ ثقیل؛ صمتٍ من يتلقى حكماً استثنائياً يقضي بإبطال براءة كان قد تعوّد عليها للتو. جلس على حافة الفراش، ووضع يديه على ركبتيه، وشعر أن القفل الجديد، ذلك الرمز الصغير لانتصاره الإجرائي، لم يكن سوى وهم لا قيمة له أمام سلطة تملك وسائل أخرى للنفاذ لا يعرفها، ولا يملك الأدوات اللغوية للاعتراض عليها.

في مساء ذلك اليوم نفسه، وحين عاد من نزهته المسائية القصيرة التي اعتاد أن يقوم بها حول البناية، وجد على كرسيه الجلدي المفضل، ذلك الذي لا يجلس عليه أحد سواه، كائناً نائماً لم يتوقعه: قطعة هزيلة، رمادية اللون، متوحشة الملامح، نائمة بتكور مطمئن كأنها تملك المكان منذ سنوات، وبجانبيها، على الأرض مباشرة، صحن أبيض صغير فيه بقايا ماء.

وقف طه عند عتبة الصالون طويلاً، ينظر إليها بذهولٍ يخالطه غضب لا يجد له منفذاً. اقترب منها بحذر، مدّ يده ليطردها، فاستيقظت فجأة وخدشت ظهر كفه بحركة خاطفة، تاركة خضاً أحمر ربيعاً بدأ الدم يتسلل منه ببطء. تراجع طه ممسكاً كفه بيده الأخرى، وشعر بأن جسده كله يرتجف من مزيج غريب بين الألم والامتهان؛ كأن هذا المخلوق الصغير قد أصدر ضده حكماً فوراً لا استئناف عليه، حكماً بأنه هو الدخيل في مكانه، لا هي.

حاول إخراجها أكثر من مرّة، لكنها كانت تعود دوماً، تتسلل من نافذة المطبخ المفتوحة للتهوية، أو من شقٍّ غائر لم يعرف بوجوده أصلاً، حتى استسلم أخيراً؛ ليس رضاء، بل إعياءً من معركةٍ يخسرها في كل مرة أمام كائنٍ لا يفهم لغة الملكية ولا معايير الحدود.

لم يحتمل طه بليّة الصمت في شقيقته. ارتدى جاكيتيه الواسع، وشدّ ربطة عنقه حتى اختنق حنكه، ثم أدار مفتاح القفل ثلاث دوراتٍ كاملة.

بمجرد أن خطا خطوتين نحو الدرج، جفل.

كانت الجارة أم زهير تجلس على ركبتيها أمام بابه تماماً، جثتها الضخمة تسدُّ الممر الضيق، وشالها الصوفي الرمادي يتدلى على الأرض. كانت أذنها متكئة تقريباً على العتبة السفلى، غير أن جثومها انقطع فور حركة المقبض، لتستدير نحو الأعلى بحركةٍ مفاجئةٍ أربكت شحوم رقبتها.

ارتبكت أم زهير للحظة، وحشرت نظارتها السميكة فوق أنسجة وجهها المترهل، لكنها سارعت إلى مد يدها نحو الأرض، تفتش بين شقوق البلاط بكفّها العريضة، وقالت بصوتها الأجشّ المشرح بالتبغ: "يا فتاح يا عليم... سقطت فردة الحلق مني وأنا صاعدة من الطابق الثاني! أقسم أنها وقعت هنا تماماً أمام بابك يا أستاذ طه... لم أجدها بعداً!"

وقف طه مسمراً في مكانه، يداه تتضاغطان داخل جيبي جاكيتيه الفضفاض. كانت عينا أم زهير، من خلف العدستين المقعرتين، لا تبثان في البلاط إطلاقاً؛ بل كانتا تتسللان بشغفٍ مفضوح عبر شق الباب الذي لم يغلقه طه تماماً، تمسحان أرضية الصالون بحركةٍ خاطفة.

وفجأة، توقفت حركة يدها. اتسعت حدقتها العائمتان، واندفعت نبرة غير متوقعة من حنجرتها وهي تشير بسبابتها نحو الداخل: "بسبس... بسبسبي! تعالي إلى هنا يا ملعونة!"

تراجع طه خطوة إلى الوراء، ملتفتاً بذعر نحو الصالون. كانت القطة الهزيلة التي قررت مشاركته السكن في الشقة دون استئذان، تطلُّ برأسها من خلف الكنبه، ترقبهما بعينين خضراوين حادثين لا رقة فيهما.

تأتأ طه: "أنت... هل تعرفين لمن هذه القطة يا أم زهير؟ لقد تسلفت إلى الشقة ولم أستطع إخراجها"

زَمَت أم زهير شفيتها، وانطلقت منها ضحكة جافة متهدجة، ثم هزت كتفها وهي تستند إلى درابزين الدرج: "طبعاً أعرفها... القطة تسكن هذا البيت قبلك يا أستاذ طه! كانت تنام تحت قدمي الحاج كامل كل ليلة... العجيب أنها اختفت يوم اختفائه، وها هي تعود!"

استدارت أم زهير دون أن تنتظر رداً، وجرت خفّها البلاستيكي الفيروزي على الدرج بصوتٍ منتظم ومزعج، تاركَةً طه واقفاً في العتمة، كمن أُلقيت في وجهه لائحة اتهام جديدة بلغة لا يفهم قواعدها.

لم تخرج القطة. كلما فتح الباب وأشار لها بيده، كانت تتكور في زاوية الكنبه وتصدر خرخرةً مكتومة. وفي إحدى المحاولات، حين مد كفه ليمسك برقبتها، قفزت بلمح البصر وخذشت ظهر كفه مرة جديدة.

تراجع طه صارخاً في سرّه، وجلس على الأرض مقهوّراً، ينظر إلى قطرة الدم التي سقطت على البلاط، متيقناً أن الشقة لم تعد ملكه، وأن هناك اتفاقاً مسكوتاً عنه بين البناية وساكنيها القدامى لتقويض وجوده.

وفي أحد الأيام، وتحت وطأة الإعياء والشعور بالإهانة، وجد نفسه واقفاً أمام رف أطعمة القطط في السوبرماركت الواقع عند طرف الشارع، يحسب النسبة بين السعر والوزن برأس معلم الرياضيات المرهق، مقنعاً نفسه بأن هذا ليس

قبولاً لوجودها، بل مجرد إجراء إنساني محض لا يليق بمعلم رياضياتٍ منضبط أن يترك مخلوقاً يموت جوعاً تحت سقفه، أياً كانت الطريقة التي اخترق بها نظامه.

كان المتجر ضيقاً، تفوح منه رائحة الكرتون المبلل والمشروبات الغازية ومواد التنظيف.

"هذا الكيس هو الأرخص هنا... رغم أن نسيج الحبوب فيه قاسٍ قليلاً على أضرار القطط الكبيرة".

جاء الصوت من خلفه مباشرة. صوتٌ عريض، واطئ، وبارد كصفحة معدنٍ لم تلمسها الشمس.

قفز طه في مكانه لافتاً بدنه بسرعة.

كان الرجل يقف على مسافة خطوة واحدة فقط. نحيف، لكن جسده يوجي بعضلاتٍ ناشفة ومشدودة تحت ثيابه. متوسط الطول، بلامح حادة وجامدة لا تتحرك فيها عضلة واحدة، وقليل الابتسام لدرجة تثير الشك. تحت عينيه هالاتٌ سوداء خفيفة تشي بسهرٍ طويل أو بانتظارٍ لا ينتهي، وعلى حاجبه الأيسر تبرز ندبةٌ قديمة مائلة تقطع الشعر بقسوة.

يرتدي ملابس سوداء بالكامل؛ كنزة ذات ياقة عالية تحت جاكيت خفيف، مع بنطال جينز قديم ومتهالك عند الركبتين، وحذاء عملي ثقيل يحمل آثار طينٍ جاف. وبين أصابعه العارية التي برزت من قفازاتٍ صوفية سوداء مقطوعة الأطراف، كانت ثمة سلسلةٌ فضية دقيقة، يراقصها بخفةٍ ساحرة ومستمرة، فتحدث طقطقةً معدنية رتيبة بين عقلات أصابعه.

تجعد طه. جفّ حلقه فوراً، وشعر بأن الجاكيت الفضفاض الذي يرتديه لا يحميه من نظرات هذا الرجل التي كانت تخترقه بثبات.

"أنا... أنا فقط أريد شيئاً بسيطاً..." تأتأ طه.

لم يتسم الرجل. ظل يراقبه بعينين ثاقبتين، وسلسلته الفضية تتلوى بين أصابعه كأفعى صغيرة. قال بنبرة خالية من أي انفعال، دون أن يرفع صوته:

"القطط القديمة لا تُربكها الأقفال الجديدة، ولا تتغيّر عاداتها بسهولة يا أستاذ... تعود دائماً لتأكل ما اعتادت عليه فقط."

انقبضت معدة طه. كيف عرف أنه غيّر القفل؟ ومن أين يعرف أنه معلم؟ سؤالان تركهما معلقين في رأسه، دون أن يجد لهما وقتاً للتفكير في تلك اللحظة بالذات، وإن كانا سيعودان إليه لاحقاً بثقلٍ مختلف تماماً.

خطا طه خطوة إلى الخلف، ضاعطاً كيس الطعام ضد صدره كأنه درع، وناداه بصوتٍ يتذبذب: "من أنت؟... هل... هل تعرفني؟"

لم يجب الرجل. اكتفى بنقل السلسلة الفضية إلى كفه الأخرى، ثم أدار بدنه بخفة، وتحرك نحو ممر المشروبات بخطواتٍ موزونة لا أثر للعجلة فيها، حذاؤه الثقيل يصدر طرقةً واحدة حادة مع كل خطوة على البلاط المنكسر. هناك، مدّ يده المكسوة بالقفاز الصوفي، وأخذ بخفّة علبة بيرة معدنية، نفس العلامة التجارية ذات الغلاف الذهبي التي وجدها طه ملقاةً في برّاد مطبخه!

جمدت الدماء في عروق طه، واهتزت رؤيته لثوانٍ؛ لم تعد العلبة مجرد مصادفة، بل وثيقة إدانةٍ حية تثبت أن هذا الغريب هو بطل الانتهاك الذي يطأ شقيقته.

تتبعه طه بحدقتين متسعيتين حتى اختفى بين الرفوف. لم ينتظر استلام الباقي؛ بل ألقى بالورقة النقدية على الصندوق بآليّة مرتعشة، وهرول خارجاً إلى الشارع القارس، والريح تلطخ وجهه برذاذ المطر الداكن.

حين وصل إلى البناية، صعد الدرج قفزاً، يتفادى النظر إلى باب أم زهير المغلق. فتح باب الشقة، ودخل مسرعاً ثم صفقه خلفه وقفله بالثلاث دورات.

ألقى كيس الطعام على طاولة المطبخ، ونظر نحو أرضية الصالون.

كانت القطة تقف عند العتبة الفاصلة بين المطبخ والصالون. لم تكن مضطجعة ولا خائفة؛ بل كان جسدها الهزيل متيبساً بالكامل، ذيلها ممتد كسيخ حديد، وعيناها مثبتتان بثباتٍ مربعٍ على الباب الخارجي المغلق. كانت أذناها متراجعتين إلى الخلف، وتصدر تصفيراً خفيفاً من أنفها، كأنها لا تنتظر طه الذي يحمل لها الطعام، بل تنتظر خطوات الشخص الذي تعرفه جيداً، وهو يصعد الدرج ببطء ويثبت قبالة الباب.

بعد حادثة القطة، أطلق طه طقساً سرياً كتمه عن الجميع؛ إذ اشترى دفترًا صغيراً بغلافٍ أسود مقوّى، من ذلك النوع الذي يُستعمل عادة لتسجيل الحسابات والمخالفات اليومية، وخُصّص لرصد كل انتهاكٍ بتاريخه وساعته الدقيقة: "السبت، السادسة صباحاً: خيظ مقطوع وأثر قدمٍ في الدقيق، الطول التقريبي 28 سم. الأحد: ظهور القطة الرمادية. الثلاثاء: التقاء الرجل غريب الأطوار في السوبرماركت..."

كان يعلم، في مكانٍ عميقٍ من وعيه، أن هذا الدفتر لا يشبه دفتر ملاحظاتٍ بقدر ما يشبه محضر جلسة يُعدّه متهمٌ لنفسه، يجمع فيه أدلة براءته قبل أن تُطلب منه رسمياً أمام لجنة التحقيق.

في المدرسة، حاول مرة واحدة أن يفتح إحدى زميلاته بالأمر بشكلٍ غير مباشر، سأل صفاء معلمة اللغة العربية عما إذا كانت تعتقد أن شخصاً يمكن أن يدخل

بيتاً مغلقاً دون أن يترك أي أثرٍ مادي على القفل. نظرت إليه بابتسامةٍ متسائلة، وسألته إن كان يقرأ رواية بوليسية هذه الأيام. ابتسم طه بابتسامةٍ باهتة، وأنكر الأمر بسرعة، محرّكاً يده كأنه يمحو خطأً على السبورة. شعر وهو يبتعد عنها بندمٍ حاد؛ فكل كلمةٍ ينطق بها لأي إنسان، تشكّل دليلاً جديداً في ملفٍ يُبنى ضده، ملفٍ عنوانه الواضح: "معلم رياضيات، ابن رجلٍ مات بنوبة كهرباء في دماغه، بدأ يفقد صلته بالواقع".

أما القطة، فقد أصبحت، رغم كل مقاومته، الكائن الوحيد الذي ينتظره حين يعود. كان يجدها كل مساء عند الباب، تجلس على مسافةٍ محسوبة منه، تراقبه وهو يخلع معطفه الفضفاض ويرتب حذاءه في مكانه المحدد، كأنها هي الأخرى قد تعلّمت لوائح شقته ورضيت بها. بدأ طه يتحدث إليها بصوتٍ منخفض وهو يُعدّ عشاءه، جمللاً قصيرة لا تحمل معنى كبيراً، لكنها كانت أول كلماتٍ ينطق بها في بيته منذ أشهر لغير نفسه.

الفصل الثالث

الرجل الذي يصلح كل شيء





ظلت القطة واقفةً عند العتبة تلك الليلة وقتاً طويلاً بعد أن أطعمها طه؛ جسدها متيبسٌ كفرعٍ يابس، وأذناها منتصبتان بحذرٍ نحو الخارج، كأنها تسترق السمع لخطواتٍ لم تصل بعدُ إلى مسمعه. راقبها طه من موضعه على المقعد الجلدي، ثم هزَّ رأسه محاولاً نفي الفكرة التي أخذت تتخثر في ذهنه: فكرة أن حيواناً أعجم بلا لغة قد يدرك من خفايا المكان ما يجهله هو؛ صاحب البيت، وحامل المفاتيح، ومُحرِّك النظام بأكمله. أطفأ الأنوار مبكراً، ونام نوماً متقطعاً لم يمنحه أي قسطٍ من الراحة.

مرَّت الأيام التالية بهدوءٍ نسبيٍّ؛ هدوءٌ حذرٌ لا يمتُّ للطمأنينة بصلة، بقدر ما يحايي الوجوم الثقيل لقاعة انتظارٍ يسبق فيها الصمتُ استدعاء الأرقام.

في ذات مساء، وحين كان طه عائداً من عمله ممسكاً بحقيبته الجلدية المهرثة بيد، وكيس طعام القطعة باليد الأخرى، أبصر عند مدخل البناية رجلاً يقف بلا غاية ظاهرة، مسنداً كاهله إلى الحائط الحجري القديم بجوار صندوق البريد المعدني الذي نخر فيه الصدأ.

كان هو الرجل ذاته الذي التقى عينية أمام رفوف أطعمة القطط في المتجر؛ يرتدي سترَةً جلديةً سوداء، تهرأت أطرافُ أكمامها بما يوجي بطول الاستعمال لا بمهانة الإهمال، وبنشاطاً فضفاضاً، وحذاءً عملياً ثقيلاً من ذلك النوع الذي يرتديه من يمارسون مهن الأيدي لا مهن المكاتب، وتبرزُ من قفازاته الصوفية السوداء ذوات الأصابع المقطوعة يدان قادرتان على الحركة بخفية مربية. كان يُخَيِّلُ أنه في سن طه تقريباً، غير أن وقفته شاع فيها استرخاءً وتصالُحٌ مع

الفضاء حوله، على نحوٍ يفقده طه نفسه داخل شقته المسجلة باسمه في الوثائق.

لما دنا طه من الباب، رفع الرجل رأسه ورشقه بنظرةٍ مباشرة، ثم انفرجت شفاته عن ابتسامةٍ هادئة، بطيئة الظهور، تبدو من طين الصنعة والتدبير لا العفوية.

"مساء الخير"، قال الرجل بنبرةٍ هادئةٍ إلى حدٍّ لافت، صوتٍ مائلٍ إلى العمق تخلو ذراته من التردد أو الوجل، كأنه يستحضر تعارفاً ممتداً عبر سنين: "أنت الجار الجديد في الطابق الثالث، أليس كذلك؟ شقة الحاج كامل القديمة".

تسقى طه عند الدرجة الأولى، واعتصرت أصابعه مقبض الحقيبة بأشدَّ مما تتطلبه اللحظة، ثم قال بنبرةٍ مقتضبة، متصنعاً الانشغال: "نعم، أنا كذلك".

لم يَئِدْ أن الرجل يكثرُ بجفافِ الردِّ، فواصلَ بالنبرة الرزينة عينها: "اسمي ليل. أعملُ هنا، في هذه البناية تحديداً؛ أُصلحُ كل ما يعطبُ لصالح السكان جميعاً منذ سنين طويلة. إن احتجت يوماً لإصلاح أي شيء، بابٍ يصرّ، أو أنبوبٍ يتسرب، أو مفصلة نافذةٍ عنيدة، فأنا قريبٌ دوماً. لا تحسبها خدمةً مجانية فتستحي من طلبها، فهذه حرفتي".

ثم أوماً بعينه نحو الكيس الذي يحمله طه، وأردف بابتسامةٍ اتسعت قليلاً: "أرى أنك ما زلتَ ترقى القطة الرمادية المشاكسة. جيد... لقد كانت وحيدةً قبل أن تصل".

لم يعقب طه على الملاحظة الأخيرة، واكتفى بهزة رأسٍ مقتضبة، ثم ارتقى الدرجات بخطواتٍ أسرع وأوسع من عادته، يشعُرُ بنظرات الرجل تخترق ظهره حتى غيَّبه منعطف الدرج.

بعد زهاءِ أسبوعين، بدأتِ مَفْصَلَةُ النافذةِ في غرفةِ النومِ تُصدرُ صريراً حاداً كلما دُرِّكَتْ، أنيناً معدنياً خافتاً يخدشُ حواسَّ طه في كلِّ مرّةٍ. فتدكّرُ عرضَ الرجلِ. وبعدَ تردّدٍ طويلٍ، ومحاولاتٍ فاشلةٍ لإصلاحها بنفسه بقطراتٍ من الزيت، نزلَ إلى الطابقِ الأرضيِ ليستفسرَ من أحدِ الجيرانِ عن طريقةِ الوصولِ إلى ذلكِ الرجلِ الذي يُصلحُ كلَّ شيءٍ، غيرَ أنه ما إن بلغَ المدخلَ حتّى لمحّه مستنداً بظهره إلى البوابةِ الحديديةِ للمبنى، يبتسمُ وكأنه كان في انتظاره.

صعدَ ليلٌ معه إلى الشقةِ حاملاً صندوقَ أدواتٍ معدنياً قديماً، كثيفَ الخدوشِ، تصدرُ أفعالُه طقطقةً خفيفةً كلما اهتز؛ طقطقةً دكّرت طه، دون أسبابٍ جليّةٍ، برائحةِ القفلِ القديمِ الذي اقتلعه قبل أسابيع.

عالجَ ليلٌ المفصلةَ بحركاتٍ رشيقة وهادئة؛ أصابعه الطويلة النحيلة تتحرك بثقة من خبر التعامل مع المعدن والخشب معاً، بينما أخذ يتحدث بصوتٍ خفيض عن البناية وتاريخها، وعن قاطنيها القدامى الذين رحلوا واحداً تلو الآخر، وعن الحاجِ كاملٍ تحديداً، بنبرةٍ عابرةٍ لا تشير الريبة في ظاهرها: "كان رجلاً طيباً... عاش هنا عمراً كاملاً". لم يرفع بصره عن المفصلة وهو ينطق بها، كأن العبارة لا تستحق حجماً أكبر من الاهتمام.

أنجز المهمة في دقائق معدودة. عرض عليه طه أن يعدّ له فنجاناً من الشاي بالأعشاب، غير أن ليل اهتز رأسه ناعماً وقال: "لا أحب الشاي، أفصّل القهوة فقط، ولكن إن لم يكن لديك بُنّ فلا داعي لإعداد شيء". ثم رفض أي مقابلٍ مادي بإصرارٍ مهذب: "عدّها عربون صداقتنا الجديدة يا أستاذ طه"، وابتسم له مع إيماءةٍ ودية قبل أن ينسحب.

في الأسابيع التالية، خيم هدوءٌ حقيقي، أو هكذا حُيِّلَ لطه على الأقل. لم يقع على طبقٍ غريب، ولا فنجانٍ لا يخصه، ولا أثرٍ في الدقيق الذي كَفَّ عن نشره أساساً بعدما بدا له ذلك السلوك طفولياً حين اختبره بميزانِ العقل. صار يلتقي بليل

بين الفينة والأخرى عند المدخل أو على الدرج، فيتبادلان كلماتٍ خاطفة، تحيةً وسؤالاً عن الحال، أو استفساراً عابراً عن القطة. وبدأ طه، دون أن يصرح لنفسه بذلك، يستشعر راحةً مبهمّة تجاه هذا الغامض الذي لا يعلم عنه سوى أن اسمه ليل، وأن كفيه ماهرتان، وصوته ساكن.

في يوم خميس من منتصف آذار، استأذن طه مبكراً من إدارة المدرسة إثر صدامٍ حادٍ برأسه منذ الصباح، فعاد إلى البناية في تمام الواحدة ظهراً، وهو وقتٌ لم يعتد أن يتواجد فيه داخل شقته قط. صعد الدرج بخطى ثقيلة مجهدة، ويده تتلمس جبهته المشتعلة بين الحين والآخر. أدار مفتاحه في القفل وفتح الباب، وما إن وطأت قدمه العتبة حتى تناهى إلى سمعه صوتُ بابِ الثلاجة يُفتح من داخل المطبخ.

تسمّر طه عند المدخل، وتجمّد جسده بالكامل، بينما أخذ قلبه يضرب بصلابةٍ مباغتة في أضلعه. تقدّم بخطواتٍ بطيئة حذرة نحو مصدر الصوت، ووقف عند إطار المطبخ.

كان ليل هناك... واقفاً أمام الثلاجة المفتوحة. لم يكن يرتدي ملابس عادية كما التقاه في المرات السابقة، بل ستره بقلنسوة صفراء فاقعة تميل إلى الخردلي، وقد رفع القلنسوة فوق رأسه لتلقي بظلالٍ غامضة على وجهه، وشعره الأسود المموج مجموعاً خلف رأسه بإهمالٍ مقصود. كان طلاء جيري أبيض خفيف يكسو بشرته دون أن يخفي ملامحه الحنطية الحادة، مع خطين أسودين ينهران كدمعتين أسفل عينه اليمنى، ونجمة سوداء صغيرة تحت العين ذاتها، ونذبة متصلة تشقّ حاجبه الأيسر. أمّا شفاته، فقد امتدّت من زاويتيها رسمه ابتسامةٍ حمراء باهتة تعلو لحيته الخفيفة المشدبة، لتمنحه وجهاً عبثياً حزيناً ومقلقاً وسط ضوء المطبخ الخافت.

لم يهرب ليل، ولم يرتبك؛ بل انفرجت رسمة الابتسامة تلك عن ابتسامة حقيقية هادئة وبطيئة. كمن وُجد في مكانه الطبيعي تماماً، ثم ردّ باب الثلاجة برفق، حاملاً تفاحة حمراء في يده اليمنى.

"ما الخبر؟"، قال بنبرة عارية من أي توتر، وهو يقضم التفاحة بهدوء: "لم أتوقعك في البيت في مثل هذا الوقت من نهار الخميس."

وقف طه عند الباب، وشفتاه ترتجفان بوهن وهو يحدق في هذا الوجه الملون والغريب، قبل أن ينطق بصوتٍ أشد حدة مما أراد: "م.. ماذا تفعل هنا؟ ولماذا زيك هذا اليوم بالذات؟"

رفع ليل حاجبه الأيسر المقطوع بالندبة دون أن يكف عن المضغ. جلس على أحد كراسي المطبخ بتمهل، ورفع قدمه اليمنى فوق حافة الطاولة بحركةٍ مسترخية استفزازية، وقال بلا مبالاة، كمن يوضح أمراً بديهياً: "لديّ عرض ظهيرة اليوم في حفل عيد ميلاد بالحي المجاور، أطفال وبالونات وفوشار. جئت لأخذ سترتي الأخرى التي تركتها هنا في زيارتي الماضية، ووجدت الثلاجة، فسولت لي نفسي تفاحة".

لم يكن هذا التبرير كافياً ليهدي طه، إذ لم يكن قد سلّم ليل مفتاحاً أصلاً ولا سترة، غير أن الصدمة من مرأى الزيّ نفسه طغت على أي تدقيقٍ منطقي في تلك اللحظة.

"قل الحقيقة... من أنت؟" سأل طه، وصوته يزداد اضطراباً، بينما تراجعت قدمه خطوة إلى الخلف دون وعي.

"يمكنك أن تعدّني شريكك في السكن"، أجاب ليل بهدوء تام، وعيناه الساكنتان تحت خطوط المساحيق لا تفارقان وجه طه.

"بل يجب أن أصفك بأنك لص... أو مجنون!" قال طه.

اتسعت الابتسامة الحمراء الممتدة على وجه ليل، وقال بنبرةٍ تقطر بسخريّةٍ خفيفة لا صراخ فيها: "اللص يسرق... فهل فقدت شيئاً من مقتنياتك غير هذه التفاحة؟"

"اخرج من بيتي فوراً!" قال طه، وقد تيبس جسده عند مدخل المطبخ.

"لم أتوقعك هكذا"، قال ليل بنبرةٍ هادئةٍ تحمل طيفاً من أسيّ مصطنع، وهو يميل برأسه المكسو بالقلنسوة الصفراء قليلاً ناحية الصالون حيث كانت القطة تتابع المشهد من بعيد: "ظننتك أليفاً وهادئاً... كهذه القطة."

"وهل تعرفني أساساً؟" سأل طه.

"لا يهم يا عزيزي، لا يهم أبداً"، قال ليل ببرودٍ منسجم، وهو يضع التفاحة جانباً على الطاولة: "فنحن مجرد رجلين نعيش في شقة واحدة، وليس بالضرورة أن نعرف بعضنا، أو أن نلتقي أصلاً."

"ما هذا البرود؟" قال طه بصوتٍ متقطع: "قل لي من أنت بسرعة، قبل أن أتصل بالشرطة."

أطلق ليل ضحكةً قصيرةً مقتضبة، وتابع أكل تفاحته بحركاتٍ متأنية استثارت في نفس طه استياءً عميقاً.

"افعل يا بطل الأبطال"، قال ليل ببساطة: "هيا اتصل بالشرطة". ثم حطّ قدميه عن الطاولة، ونهض ببطء، واقترب خطوةً واحدة من طه، ثم قال بنبرةٍ خفيفة، تدنو من الهسيس: "تأخرت كثيراً لتكتشف أنني أنا من يشاركك السكن دون علمك".

استقر ليل في مكانه من جديد، ورفع قدميه فوق طاولة المطبخ مستأنفاً قضم التفاحة ببرود.

ركض طه فجأة نحو الصالون بحركة عشوائية، وأمسك بهاتفه القديم من فوق الطاولة، ورعشت أصابعه وهي تضغط على الأزرار، غير أنه استشعر فجأة يداً تقبض على ذراعه من الخلف ببرودة وقوة.

"مع أن الشرطة ستعتبرك مجنوناً، إذ لا اسم لي في سجلاتهم... خاصة لو وصفت لهم رفيقاً يرتدي زيّ مهرج في مطبخك"، قال ليل بصوت أقرب إلى الفحيح منه إلى الكلام: "لكنني سأعود... بطلب منك أنت، لأنك ستحتاجني. هذا ليس تهديداً، بل حقيقة".

أطلق ذراع طه، ومشى بضع خطوات نحو الباب بلا عجلة. وقبل أن يتجاوز العتبة، أمال رأسه قليلاً دون أن يستدير بكل جسده، وقال بابتسامة تتجلى في نبرته لا في ملامحه المبتلة بالطلاء: "شكراً لرعايتك قطتي".

ثم أغلق الباب خلفه بسكون، تاركاً طه شاخصاً في منتصف الصالون، هاتفه يتذبذب في يده المرتجفة، وأنفاسه متلاحقة، بينما يلتف صمت الشقة حوله كغطاءٍ من رصاص لا يستطيع الفكاك منه.

في تلك الليلة، جلس طه على حافة فراشه وقتاً طويلاً قبل أن يمدّ يده نحو الهاتف. طلبت أصابعه، دون قرارٍ واعٍ منه، رقم عمته وفاء؛ ذلك الرقم الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب من بين أرقام هاتفه العتيق، كاسمٍ محفورٍ في ذاكرته لا يمحوه الزمن.

روى لها بعد ترددٍ ما حدث مع المهرّج الذي اقتحم شقته، بصوتٍ متهدجٍ متعثرٍ. لم تقاطعه العمة، لم تصرخ ولم تُبدِ ذعراً مسموعاً، غير أن صمتها في الطرف الآخر من الخط كان أثقل من أي صراخ؛ صمت من تسمع صدى ماضي ظنّته

مطوياً إلى الأبد. حين انتهى طه من كلامه، قالت بصوتٍ هاديٍّ لكنه لا يقبل النقاش: "عداً صباحاً ستذهب إلى الدكتورة سميرة".

لم يعرف طه في البداية مَنْ تقصد، حتى أوضحت له أن الدكتورة سميرة هي عينها التي كانت تشرف على حالة والده قبل رحيله، وأنها، رغم تقدمها في السن، لا تزال تمارس عملها في عيادتها الصغيرة، وتظل الشخص الوحيد الذي تثق به لعلمها التام بتاريخ العائلة. لم يجادلها طه، بل استسلم ووعدها بالذهاب.

في صباح اليوم التالي، كان طه يجلس في عيادةٍ صغيرة أمام الدكتورة سميرة؛ امرأةً بلغت أواخر الخمسينيات، شعرها بنيٌّ خالطته خصلاتٌ من الشيب وعُقد بإحكامٍ خلف رأسها، ترتدي بلوزةً كحلية داكنة وتضع نظارةً رفيعة الإطار. وفي نظرتها هدوءٌ عميق يشبه سكونَ من شهدت كثيرين قبل طه يجلسون على المقعد ذاته.

جلس طه على الكرسي المقابل، وراح يروي للطبيبة كل ما حدث: الأشياء الغريبة، المهرج، المواجهة في المطبخ.

"وهل رأى هذا المهرج أحد غيرك؟" سألتها الطبيبة بنبرة هادئة، مهنية.

تجمّد طه لحظة، ثم اعتدل في جلسته بحركةٍ مفاجئة تشبه الاعتراض: "وهل تعتقدين أنني أتوهم؟ هذا الرجل حقيقي.. اسمه ليل.. إنه حقيقي".

لم تتغير ملامح الدكتورة سميرة، وقالت ببساطة: "حسناً، أثبت لي".

صمت طه. فتح فمه ليحجب، ثم أغلقه من جديد، إذ لم يجد في ذهنه دليلاً واحداً يستطيع أن يضعه على المكتب الخشبي بينهما؛ لا صورة، لا شاهد، لا حتى بقعة قهوةٍ لم يغسلها بيديه بنفسه في كل مرة.

ابتسمت الدكتورة سميرة عندئذٍ ابتسامة اطمئنانٍ هادئة، وقالت بلطفٍ حذر: "طه، ما تصفه لي يتطابق مع أعراض هلوسات بصرية وسمعية، قد تنجم عن ضغطٍ نفسي متراكم، خاصة مع ما نعرفه أنا وأنت عن تاريخ والدك المرضى".

جلس طه صامتاً، ينظر إلى يديه، وشعر للمرة الأولى بشيء يشبه اليقين البارد بأن كل ما عاشه ربما لم يكن سوى ملفٍّ يُبنى داخل رأسه هو، لا خارجه.

خرج من العيادة، وسار عائداً إلى شقته بخطواتٍ بطيئةٍ مثقلة بشيء يشبه الحكم النهائي. فتح الباب بمفتاحه الجديد، ودخل إلى صالونٍ ساكن تماماً كما تركه، لا طبق غريب، لا فنجان، لا رائحة عطرٍ رخيص. كل شيء في مكانه، بدقةٍ تكاد تكون مثالية، إلى الحد الذي جعله، للمرة الأولى، لا يشعر بالارتياح الذي توقعه، بل بقلقٍ من نوعٍ مختلفٍ تماماً.

وحين اقترب من طاولة الصالون ليضع مفاتيحه في مكانها المعتاد، وجد ورقة صغيرة مطوية بعناية تحت المصباح، لم تكن هناك حين غادر في الصباح. فتحها بأصابع مرتجفة، فوجد سطرًا واحدًا فقط، مكتوبًا بخطٍّ لا يشبه خطّه هو بأي حال: "سأعود".

بلا توقيع، بلا تاريخ. وقف طه طويلاً يحدّق في الورقة بين أصابعه، غير قادرٍ على تحديد أيّهما أشدّ رعباً: أن يكون الرجل قد عاد فعلاً ليتركها، أم أنه هو من كتبها بيده، في لحظةٍ لا يذكرها.

الفصل الرابع

الغرض

Solve for x :

1) $2x^2 - 7x + 3 = 0$

2) $(x-3)^2 = 4(x+1)$

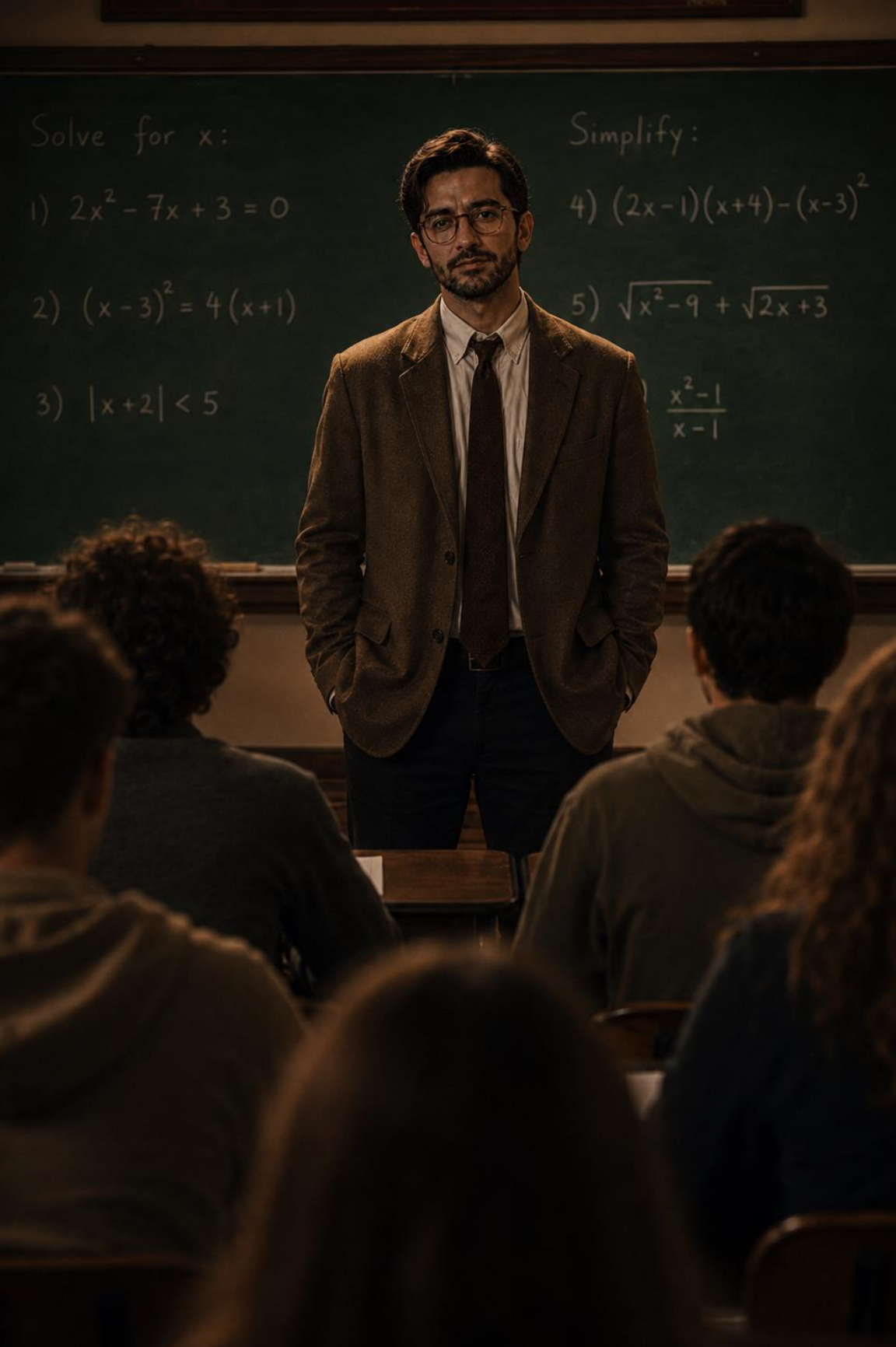
3) $|x+2| < 5$

Simplify:

4) $(2x-1)(x+4) - (x-3)^2$

5) $\sqrt{x^2-9} + \sqrt{2x+3}$

$$\frac{x^2-1}{x-1}$$





مرّت الأسابيع التالية لحادثة الورقة المطوية بهدوءٍ خادعٍ؛ ذلك النمط من السكون الذي لا يثق به طه مطلقاً بعد كل ما كابده، فاستمر في فحص الشقة كل مساءً، عند عودته من المدرسة، بعينٍ فاحصة تقضي المسارات قبل أن يخلع معطفه، وفي إبقاء دفتره الأسود محبوساً في درج الطاولة دون أن يجرؤ على فضّ غلافه، كأنما إغلاقه وحده كافٍ لإغلاق ملفّ شائك لم يُبْت فيه بعد.

كانت امتحاناتُ نصفِ السنة على الأبواب، وانشغل طه، كعادته في هذا الوقت من كل عام، بإعداد أسئلة الرياضيات بدقةٍ متناهية؛ يراجعها مراراً، ويصقل صياغة كل رقمٍ ومسألة كي لا تحتل إلا تأويلاً واحداً، ثم يُحكم حفظ الأوراق في مجلدٍ بلاستيكي يودعه قاعَ درج مكتبه في المدرسة.

في صباح يوم الأربعاء، وتحديدًا في منتصف الحصة الثانية بينما كان يخطّ معادلةً جبرية على اللوح الأخضر، استُدعي طه فجأةً إلى مكتب مدير المدرسة "الأستاذ مهيب" عبر ورقةٍ صغيرة سلّمها له الساعي بنظرٍ مريبة. اعتذر لطلابه بصوتٍ لم يفلح في مواراة ارتباكهِ المفاجئ، وخرج يطوي الممر بخطواتٍ مترددة.

أخذ يسائل نفسه بوجلٍ عارم تصاعد كالموج في رأسه: "هل يعقل أن المدير علم بأمر زيارتي للطبيبة سميرة؟ هل يمكن أن يفصلني عن العمل؟ طبعاً سيفصلني! فإذا ساوره الشك في قواي العقلية وأثبت أنني مريض، سيُرفع تقريرٌ عاجل للوزارة، والوزارة ستصدر بحقي مذكرة توقيفٍ فورية عن الخدمة... يا إلهي! لماذا استسلمت لرجاء عمتي وفاء وزرت عيادة الطبيبة؟"

كان مكتب المدير غرفة واسعة نسبياً، ذات جدرانٍ متشرّبة بلونٍ أخضر باهت، تتوسطها طاولة خشبية ثقيلة، وخلف الطاولة جلس الأستاذ مهيب، رجلٌ في أواخر الخمسينيات، ذو شارِبٍ رمادي كثيف، وعلى محيّاه تعبيرٌ جامد ينضح بجديّة قاسية. وإلى جانبه، جلس على كرسيٍّ آخر رجلٌ لم يعده طه من قبل، يحتضن حقيبة جلدية سوداء أنيقة، قدّمه المدير باقتضابٍ حاد بأنه مبعوث إدارة الرقابة التربوية المكلف من وزارة التربية والتعليم.

في تلك اللحظة، شَعَرَ طه ببرودةٍ مباغتة تسري في أطرافه، بينما تجمّع العرقُ البارد على جبهته ومؤخرة عنقه.

"هل تتعرف على هذه الأوراق يا أستاذ طه؟" سأل المدير بنبرةٍ ثقيلةٍ باردة، مشيراً بأصبعه العريض نحو المنتصف الخالي من الطاولة.

جال بصر طه ببطءٍ مضطرب باتجاه حيث أشار الأصبع، ليرى أوراقاً ممسوحة ضوئياً، صوراً جليّة لأسئلة امتحان الرياضيات، بالصياغة ذاتها التي خطّها بيده قبل أسبوعٍ واحد.

جلس طه على الكرسي المقابل بوهن، وجفّ حلقه بالكامل حتى كاد يلتصق ببعضه.

"إذاً ليست المشكلة في أمر زيارتي للطبيبة سميرة... ولكن هذا لا يقل خطورة!" قال ذلك في سرّه، ثم انتزع من حلقه صوتاً مبحوحاً أجاب به المدير: "نعم... هذه أسألتني، لكنني لا أعرف كيف..."

قاطعه المدير برفع يده بصرامة، وأشار نحو الباب المغلق. فُتِحَ الباب ودخل عندئذٍ أحد الطلاب، مازن، التلميذ ذاته الذي اعتاد أن يهمس خلف ظهر طه بتعليقاته الساخرة، لكنه كان يمثل هذه المرّة بوجوهٍ شاحب كالقماش.

"قل للأستاذ ما أفضيت به إليّ"، قال المدير بنبرةٍ أمرّة.

تلعنم مازن، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ يتجنب التقاء عينيه بعيني طه: "اشتريتُ الأسئلة من الأستاذ طه... بمبلغ خمسين دولاراً. أعطاني إياها مصورةً على ورقةٍ مطوية، وقال لي إن الأمر محصورٌ بيني وبينه فقط."

شعر طه كأن الأرض تمور تحت قدميه، وارتفع صوته دون إرادةٍ منه: "هذا كذبٌ صريح! أنا لم أتحدث مع هذا الطالب خارج سياق الحصة قط!"

لكن الدفاع الذي حاول أن يسبغه على نفسه خرج متقطعاً، متهدجاً.

خرج طه من ذلك المكتب ومشاعر الخزي تلاحقه، يُخَيِّلُ إليه أن جدران المدرسة عينها تراقبه، وأن كل جفنٍ يطرف في الممر يحمل حكماً ناجزاً بإدانته.

في اليوم التالي، جاءه الاستدعاء مجدداً بنبرةٍ أكثر صرامة. جلس في البقعة ذاتها أمام المدير ورجل الرقابة، ليجد أن مازن قد مَثَلَ مجدداً ولكن بشهادةٍ جديدة؛ إذ ادّعى أن الأستاذ طه اتصل به هاتفياً مساء أمس، وهدده بعواقب وخيمة إن لم يسحب اعترافه.

عاد طه إلى شقته ذلك المساء بخطواتٍ يثقلها التعب، وأطرافٌ معطفه غيرُ مُزَرَّرَةٍ رغم البرد القارس. كان الشارع خاوياً، والمصابيح الصفراء القديمة تلفظ ضوءاً خافتاً متذبذباً فوق الأرصفة المبللة بأثر مطرٍ خفيف هطل بعد الظهيرة.

وراح طه يسأل نفسه: "أيعقل أن تكون شهادة مازن صحيحة؟ أيعقل أنني بعثتُ حقاً أسئلة الامتحانات للطلاب دون أن أتذكر؟"

وعلى رصيفٍ متآكل الأطراف قرب المبنى، أبصر ليل جالساً على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ متسخ؛ ساقاه ممدودتان بلا اكتراث، يده اليسرى غائبة في

حبيب سترته الجلدية، وأصابع يده اليمنى تراقص السلسلة الفضية بإيقاع متواتر، فيما وجهه مائلٌ نحو السماء كأنما يرصد غيماً لا يراه أحدٌ سواه.

وما إن رآه حتى قال ليلٌ بنبرةٍ تفيض باللامبالاة والتهكم: "اشتقتُ إليك يا أستاذ... تفضل بالجلوس إلى جانبي؛ فالجلوس على الرصيف يتطلب ذاكرةً أقل بكثير مما تحتاجه لوضع أسئلة الامتحانات!"

توقف طه أمامه، وقد بلغ به الإجهاد النفسي والتشتت حدًّا أفقده التعقّل، فاندفع يتحدث بصوتٍ متهدج يخالطه غضبٌ عاجز: "أنت... أنت لست موجوداً!.. اخرج من رأسي بسرعة!" ثم أردف، وقد ارتفعت نبرته جهيرةً: "أنت مجرد صورة اختلقها عقلي المريض! الطبيبة سميرة قالت ذلك!.. أنتم جميعاً لستم حقيقيين!"

انفجر ليل عندئذٍ بضحكةٍ عالية صاغرة رنّت في الشارع الخالي، وقال بسخريةٍ لا ترحم: "أخبروني كثيراً عن المجانين الساذجين الفاقدين عقولهم... ولكنها المرة الأولى التي التقي فيها ببليدٍ مثلك!"

عقد طه حاجبيه بغضبٍ مكتوم، وتجاهله وواصل السير بسرعة. غير أن ليل نهض بخفةٍ ورشاقة ودنا خلفه بخطى واسعة، وأخذ يصيح بنبرةٍ طفولية مشاكسة: "بما أنك تعتبرني شبحاً، لماذا غضبت إذًا؟... كوكوا!.. أنا لستُ موجوداً... لا أحد يراني سواك... كوكوا!"

تابع طه سيره متجاهلاً الالتفات إليه، والدوار يعصف بدماعه.

فصاح ليل محاولاً استبقائه: "طب اسمعني يا طه... لن تخسر شيئاً!"

توقف طه عن السير بغتة، ونظر إليه بعينين محققتين.

اقترب ليل، واستحالت عيناه إلى الهدوء التام، وقال بصوتٍ منخفضٍ تنشط فيه نبرة تسليّةٍ خفية: "لقد علمتُ بما حدث معك في المدرسة".

ضحك طه ضحكةً جافة، مريرة، وقال بسخرية: "بالطبع علمت! أنت وهمٌ يعرف كل شيء عني... لأنك ببساطة أنا!"

لم يُعقب الرجل على الملاحظة، بل مدّ يده إلى جيب سترته واستخرج علبة سجائر مجمّدة، ثم استلّ منها واحدة وأشعلها بحركةٍ متأنية، ونفث الدخان في الهواء البارد قبل أن يقول ببرود: "بإمكاني أن أخلّصك من هذه المشكلة".

تجمّد طه في مكانه، وشخص فيه بحذرٍ خالطه بريقٌ أملٍ مكتوم. "والمقابل؟".. سأل بصوتٍ خفيض.

ابتسم ليل ابتسامةً هادئةً بطيئة، وقال: "أن آتي للسكن معك في الشقة... رسمياً هذه المرة. لا زياراتٍ خاطفة، ولا أكاذيب عن الصيانة".

فكر طه لبرهة، وشعر بموجةٍ ثقلٍ وإرهاقٍ تجتاح كاهله، غير أنه تماسك وقال بنبرةٍ أحزم مما توقعه من نفسه: "حلّ المشكلة أولاً... وبعدها نتفق".

هزّ الرجل رأسه ببطء موافقاً، ثم استوى في وقفته، ونظر إلى طه نظرةً فاحصةً تقييمية.

"أخبرني الآن، في حال تركتَ التدريس"، قال ليل فجأةً بنبرةٍ جادة حاسمة لم يعهدها طه منه: "مَن هو المستفيد الأول؟"

توقف طه عن التفكير، وارتبك السؤال في ذهنه؛ إذ لم يخطر له قط أن يفكك الكارثة بهذه الطريقة الباردة المحسوبة. "لا أعرف"، قال أخيراً بتردد: "لم أفكر في الأمر هكذا من قبل".

نفث ليل الدخان ببطء، ونظر إليه بعدم صبرٍ هادئ، ثم أعاد السؤال: "حسنًا... مَنْ يكرهك؟ أو مَنْ تظن أنه لا يطيق وجودك في تلك المدرسة؟"

فكّر طه طويلًا، ثم قال بصوتٍ متلعثم: "لا أريد أن أظلم أحداً... هناك شخصٌ لا يستلطفني، هذا صحيح، لكن ليس لدرجة أن يدبر لي مكيدةً بهذه البشاعة"

نظر إليه ليلٌ نظرةً طويلة تطفحُ بسخريةٍ وشفقةٍ باردة، وقال بصوتٍ قاطع: "كم أنت ساذجٌ وبسيط! أنا حقاً أشفقُ عليك"، ثم أطفأ السيجارة ببطء، وأردف: "قل لي... مَنْ هو، وما قصته معك بالتفصيل؟"

تردد طه، وشعر بلسانه يثقلُ في فمه قبل أن يلفظ الاسم، كأن نطقه اعترافٌ علنيٌّ بما يخشى مواجهته: "الأستاذ... الأستاذ زيدان".

الفصل الخامس

التلقين





جاء ليلٌ إلى الشقة في اليوم التالي من الباب وقرع الجرس للبدء في تنفيذ اتفاقهما. لم يكن يرتدي زيه البهلواني هذه المرة، بل قميصاً أسود بسيطاً وسترّة داكنة، ونظارة شمسية، وقفازين صوفيين أسودين بلا أصابع تبرز منهما أنامله وهي تداعب سلسلة فضية. كان وجهه عارياً تماماً من المساحيق، أملس وشاحباً تحت أضواء الشقة، حتى إن طه حين فتح له الباب بحذر، حدّق في ملامحه العادية بذهول، كأنه يواجه رجلاً آخر غير الذي اقتحم شقته قبل أيام قليلة.

جلس ليل على كرسي المطبخ نفسه الذي جلس عليه في تلك المواجهة الأولى، لكن بلا استفزاز هذه المرة، بجسدٍ منتصب، ويده متشابكتان فوق الطاولة بطريقةٍ توحى بجدية العمل لا الاستهزاء. طلب من طه أن يجلس مقابله، وبدأ يسأله أسئلة دقيقة عن الأستاذ زيدان: منذ متى يعمل في المدرسة، هل له صلة قرابة بأحد في الإدارة، هل سبق أن اشتكى منه أحد الطلاب من قبل، وما طبيعة علاقته بمارن تحديداً. أجاب طه بقدر ما يعرف، بينما راح ليل يدوّن بعض الملاحظات على ظهر مغلفٍ ورقي أخرجته من جيب سترته، بخط صغير مائل، سريع، وواثق.

"سأتكفل ببعض الأمور"، قال ليل أخيراً، طاوياً المغلف ووضعته في جيبه من جديد، "لكن الباقي عليك أنت. ذهابك إلى هناك، ووقوفك أمامهم ومواجهتهم لا يمكن أن ينوب عنك فيه أحد".

بعد يومين، وصلت إلى الأستاذ زيدان، في درج مكتبه بغرفة المعلمين، رسالة مطبوعة على ورقة بيضاء عادية، بلا توقيع. قرأها زيدان في الاستراحة القصيرة

بين الحصتين، وشحب وجهه العريض فجأة، إذ حملت الرسالة سطرًا واحدًا لا أكثر: "تراجع قبل أن يقلب السحر على الساحر، فقد كُشِفَتْ. لديّ الدليل". طوى زيدان الورقة بسرعة وأخفاها في جيب سترته، ونظر حوله بعينين قلقيتين.

في اليوم نفسه تقريبًا، وجد مازن، وهو يفتح حقيبته المدرسية في الصف، رسالة مماثلة مطوية بين كتبه: "هناك من صورك وأنت تتآمر مع الأستاذ زيدان، إن لم تصلح ما أفسدته، سأخبر والدك، وستفصل من المدرسة"، ارتجفت يد مازن وهو يقرأها، ولم يستطع التركيز في أي حصة بقية ذلك اليوم.

في مساء ذلك اليوم، عاد ليل إلى شقة طه بالزّيّ البهلواني دون أن يبرر لطه عن سبب تكرر به، وهذه المرّة طلب منه أن يقف أمام مرآة الصالون الطويلة، تلك المرآة القديمة ذات الإطار الخشبي المتشقق التي ورثها طه مع الشقة ولم يفكر يومًا في استبدالها.

"قف مستقيمًا"، قال ليل بنبرة آمرة هادئة، واقفًا خلف طه بمسافة قصيرة، ينظر إلى انعكاسهما معًا في المرآة. "لا، ليس هكذا، كتفاك متقوقعتان كأنك تحاول الاختفاء. افردهما بسرعة".

حاول طه أن يفعل ما يُطلب منه. "جيد. الآن، انظر إلى عينيّ في المرآة، لا إلى الأرض. حين تتحدث إلى أحدٍ يحاول إسقاطك، أول ما يبحث عنه هو عينان تهربان. لا تمنحه إياهما".

درّب ليل طه على جمليّ قصيرة، حاسمة، خالية من التردد، يكررها أمام المرآة مرارًا حتى تستقيم نبرتها: "أنا لم أفعل ما تتهمونني به، والأدلة ستثبت ذلك". كان طه، في كل مرّة يكررها، يشعر بصوته يخرج مرتجفًا في البداية، فيوقفه ليل بيدٍ هادئة على كتفه، ويطلب منه أن يبطن، أن يتنفس بعمق قبل الجملة لا أثناؤها.

"التردد الذي يظهر في صوتك"، قال ليل بنبرة هادئة، جالسًا الآن على ذراع الكرسي الجلدي، "ليس دليل كذب، لكنهم سيقروؤونه كذلك، لأن الناس، في أغلبهم، لا يميزون بين رجل خائف ورجل مذنب. عليك أن تعطيهم الفرق بوضوح". توقف قليلاً، ثم أردف بنبرة أهدأ: "اقتصد في كلامك، وتحدث بثقة. ولا تجعل ابتسامتك تغيب عن وجهك حتى في أصعب اللحظات. لا تتدنَّ أبداً في تصرفاتك؛ تصرف كأنتك واثق من نفسك، تُعامل بالثقة نفسها". نظر إليه ليل نظرة طويلة، وأضاف بصوت أخفض: "وتعلَّم أن تقرأ الآخرين قبل أن يقرأوك، فمن يعرف نقطة ضعف خصمه، لا يحتاج أن يرفع صوته أبداً ليكسبه".

تدرب طه على ذلك لساعات، لثلاثة ليالٍ متتاليات، حتى بدأ يشعر، لأول مرة منذ سنوات، بشيء يشبه الثقة يتسلل إلى جسده.

في صباح يوم الاثنين التالي، وبالرغم من أنه كان لا يزال موقوفاً رسمياً عن العمل، توجه طه إلى المدرسة، مرتدياً جاكيت سوداء جديدة على مقياسه، وقميص أبيض من دون ربطة عنق تاركاً أزراره الأولى مفتوحة، استلف نظارة مدرّبه ليل الشمسية، وسار نحو المبنى بخطواتٍ لم يتعرف عليها هو نفسه.

اعترضه حارس المدرسة عند البوابة، مذكراً إياه بأنه ممنوع من الدخول ريثما ينتهي التحقيق، فوقف طه أمامه، فردّ كتفيه كما دربه ليل، وقال بصوت هادئ لكنه لا يقبل الجدل: "لديّ حق قانوني في مقابلة الإدارة لتقديم دفاعي، وسأنتظر هنا حتى يُسمح لي بذلك". لم يتراجع الحارس فوراً، لكن صوت طه، بثباته غير المعتاد، جعله يتردد.

في الممر، صادف طه الأستاذ زيدان خارجاً من غرفة المعلمين، يكتسيه شحوبٌ غير معتاد. حاول زيدان مروره خائفاً، لكن طه اعترض طريقه بثبات، ونظر في عينيه مباشرة ثم ربت على كتفه قائلاً بصوت خفيض قاطع: "كيف حالك يا أستاذ زيدان؟ بلغني أنك أكثر المدافعين عن قضيتي

هنا... أشكرك من أعماق قلبي يا عزيزي، وتأكد أن الحقيقة، مهما تأخرت، لا تبقى طويلاً تحت السطح."

اضطربت شفة زيدان وحاول انتزاع إجابة فتلعثم، ثم انسلّ بخطوات عاجلة متعثرة نحو أقصى الممر.

دخل بعدها إلى مكتب المدير، الذي بدا مندهشاً من حضوره غير المصرح به، لكن طه جلس على الكرسي دون أن يُطلب منه ذلك، وقال بنبرة واثقة: "أستاذ مهيب، أطلب منك، بصفتي معلماً له سجل نظيف طوال سنوات عمله هنا، أن تعيد فتح التحقيق، وأن تدقق في توقيت الرسائل والشهادات، لا في الاتهام وحده".

نظر إليه المدير نظرة طويلة، ثم أوماً برأسه ببطء، ووعدته بمراجعة الملف من جديد. وقبل أن يخرج طه، اقترح عليه أن يستدعي مازن إلى مكتبه ويسأله بحضور وليّ أمره سؤالاً واحداً فقط: "لماذا فعلت هذا وورطت نفسك؟"

في الأيام التالية، بدأت خيوط القضية تتكشف واحداً تلو الآخر. انهار مازن أمام المدير بحضور والده، وأقرّ بكل شيء، معترفاً بأن زيدان هو من صوّر أوراق الأسئلة من مكتب طه خلال غيابه اللحظي عن الصف.

انتهى الأمر، بعد أسبوعين، بجلستٍ رسمية عقدها المدير، أعلن فيها أن التحقيق أثبت براءة الأستاذ طه الكاملة، وأن الأستاذ زيدان يُفصل من عمله فوراً. ثم مدّ الأستاذ مهيب يده نحو طه أمام الجميع، وقال بصوت خفيض يحمل شيئاً من الاعتذار الحقيقي: "إدارة المدرسة تعتذر لك يا أستاذ طه، عن كل ما تسبب به هذا التحقيق من ضررٍ بحقك".

أمسك طه باليد الممتدة، وأطبق عليها بقبضة ثابتة لا تردد فيها، قبل أن يرفع قامته وينتصب بثباتٍ لم يعتد أحداً من الحاضرين عليه.

عاد طه إلى شقته بعد ظهر ذلك اليوم، بخطواتٍ خفيفةٍ لم يعهدها في نفسه منذ زمن. صعد الدرج بلا القلق المعتاد. وما إن حاذى الطابق الثاني، حتى انفرج باب شقة جارته أم زهير فجأة، لتطلّ برأسها وترقب صعوده، ثم تجمدت في مكانها، واتسعت عيناها بذهول.

"يا لطيف يا أستاذ طه!"، هتفت بنبرةٍ يختلط فيها الشك بالإعجاب: "والله لما لمحتك من النافذة تدعم العتبة، ظننتُ أن نجماً سينمائياً كبيراً ضلّ طريقه وجاء ليزور أحداً في بنايتنا!".

توقف طه بثبات، واستدار نحوها بكامل جسده، ونظر إلى عينيها مباشرة، وانفجرت شفاته عن ابتسامةٍ واثقة، وقال بنبرةٍ دافئة ورزينة: "عيناك هما الجميلتان يا أم زهير... يسعد صباحك ومساءلك".

ثم استدار وتابع صعود الدرج بتمهلٍ وأناقة.

وقفت أم زهير مكانها كمن أصابها صاعقة. وما إن ابتعد عنها ببضع درجات، حتى استوقفته بنبرةٍ مبحوكة يملؤها الدهول: "لحظة... هل أنت شقيق طه التوأم؟!"

توقف طه على حافة الدرجة، وأطلق ضحكةً خفيفة صافية، وقال بصوتٍ ناضج وممتلئ بالثقة: "أنا طه يا أم زهير... ولكن طه الجديد".

تركها شاخصة في مكانها، فيما واصل صعوده، فتح قفل باب شقته بمفتاحه، ودخل.

توقف عند العتبة.

كانت الشقة، منذ اللحظة الأولى، مختلفة عما تركها عليه في الصباح؛ ففي الصالون، إلى جوار الكرسي الجلدي، استقرت حقيبة سفرٍ كبيرة مفتوحة جزئياً،

تفيض منها بعض الثياب المطوية بإهمالٍ ظاهري. وعلى الطاولة، حيث اعتاد طه أن يضع مفاتيحه في زاويتها المحسوبة، ظهرت أغراضٌ لم يرها من قبل: علبةُ سجائر، ولاعةٌ معدنية قديمة، وكيسٌ يضمُّ بعض المشتريات من المتجر نفسه.

من غرفة النوم، جاءه صوتٌ ينادي باسمه بثقة، هادئًا ومألوفًا: "طه؟ لقد أطعمتُ القطة قبل وصولك... تعال يا صديقي، أنا هنا".

توقف طه في مكانه لثانية، ثم تبع الصوت بخطواتٍ مترددة. مدَّ يده بشاتٍ جديد ودفع باب الغرفة الموازٍ ببطء.

كان ليل هناك، واقفًا أمام المرأة الطويلة، منحنياً قليلاً نحو انعكاسه. كانت يده اليمنى ثابتة في الهواء، تحبس أنفاسها وهي ترسم بفرشاةٍ رفيعة خطوطًا سوداء دقيقة عند زاوية عينه. كان نصف وجهه قد اكتسى بالفعل ببياضٍ جيري ناعم، بينما بقي النصف الآخر على حاله: حنطياً، حياً.

تسمر طه عند العتبة، وعلّق نظرتَه على المرأة، فيما سكنت يد ليل بالفرشاة حين رأى انعكاس طه خلفه. أmaal ليل رأسه طفيفاً، والتفت بنصف وجهه الملون نحو الخلف، وانفجرت شفته الملطخة باللون الأحمر عن تلك الابتسامة البطيئة والمقلقة التي اعتادها طه.

"أخيراً عدت"، قال ليل بابتسامةٍ بسيطة، بلا سخرية هذه المرة. "أنجزنا اتفاقنا، أليس كذلك؟"

وقف طه عند العتبة، ينظر إلى حقيبة السفر، إلى ليل الواقف في عمق شقته وكأنه لم يغادرها يوماً، وشعر بشيءٍ يتصارع في صدره بين امتنانٍ لم يعرف كيف يسميه، وقلقٍ عميق لم يكن مستعداً لمواجهة بعد.

فرك راحتيه ببعضهما، حركة توتر لم يستطع كبها، وتقدم خطوة واحدة داخل الغرفة، ثم توقف، وقال بصوتٍ يحاول أن يبدو حازماً فلا يبدو كذلك تماماً: "ليل... أنا ممّتن لك، حقاً، لا أعرف كيف كنت لأخرج من هذه الورطة لولاك. لكن... لا أستطيع أن أستقبلك للعيش معي في البيت. يمكنك أن تزورني متى شئت، أن نبقي صديقين، لكن السكن معاً، هذا... هذا أمر آخر".

لم يتوقف ليل عن حركة يده، بل أكمل رسم الخط الأسود تحت عينه حتى نهايته بثبات تام، ثم وضع الفرشاة على حافة الطاولة الصغيرة أمام المرأة برفقٍ، وأدار جسده كاملاً نحو طه هذه المرة، ببطء يشبه الاستعراض. كان نصف وجهه الأبيض يواجه طه الآن مباشرة، والابتسامة على شفّتيه لا تزال هناك، لكنها فقدت شيئاً من دفئها السابق دون أن تتحول إلى غضبٍ صريح، بل إلى هدوءٍ أشد برودة من أي غضب.

"وأنا، مستحيل... أن أجبرك على بقائي"، قال ليل بنبرة باردة قاتلة، كل كلمةٍ منها موزونة بدقة. أمال رأسه قليلاً، ورشّخ نظرتيه في عيني طه اللتين بدأ الذعر يزحف إليهما، وتابع، صوته يهبط طبقةً أخرى من الجمود:

"سأجمع أشيائي وأذهب، بكل بساطة. لكنك، هذه المرة، لن تجدني بجانبك...". سكت هنيهة، ثم تابع، وتوتر طفيف يضرب عضلات فكه الملوّن: "إذا -لا سمح الله- علم الجميع أنك تتردد على عيادة طبيبٍ نفسي، وأنتك تتناول أدوية لعقلي يخونك...".

رفع ليل إصبعه السبابة الملطخ بالطلاء الأسود أمام وجه طه، وحركه ببطء، وتابع: "أعتقد أنها طبيبة وليست طبيب، اسمها سميرة... كما قرأته على راشيتة الدواء في الدرج الثاني أمام سريرك".

انزع قلب طه، وشخصت عيناه على فم ليل وهو يفتح بتمهل ويغلق، تاركاً كل كلمة تخرج كأنها طليقة مصوّبة نحو رأسه، فيما تحولت حركة الشفتين إلى مشهدٍ ضبابي مرعب. "م.. كيف.. كيف عرفت؟".

خطا ليل خطوةً نحوه، بطيئة، محسوبة. ثم اقترب أكثر، حتى وصلت شفاته الملطختان بالأحمر بالقرب من أذن طه، وهمس بصوتٍ لا يتجاوز الفحيح الخافت، فحيح الأفاعي قبل اللدغ: "والأهم من كل هذا... ما حدث مع والدك".

ترجع طه خطوةً كاملة إلى الوراء، بوجهٍ شحّب فجأة، وعرقٌ بارد يكسو جبينه. يده ارتفعت قليلاً وتصلّبت في الهواء، وقال بصوتٍ ارتفع فيه الاعتراض على استحياء الخوف: "أبي مات بنوبة... وهذا ليس معيئاً، له الرحمة".

أطلق ليل ضحكةً قصيرة، هادئة، لا صخب فيها. ومال برأسه قليلاً، ونصف وجهه الأبيض يتلوى مع الابتسامة الممتدة:

"هذا ما أخبرتك به عائلتك. فوالدك لم يكن يعاني من كهرباء زائدة في الرأس، كفاك سذاجة يا طه... وصحّح".

توقف لحظة، ورفع ليل حاجباً واحداً تشقّه الندبة في لفطة سخرية أخيرة، وعيناه لا تفارقان وجه طه:

"مرض والدك كان مختلفاً تماماً. وأضف إلى هذا معلومة مهمة جداً، بإمكانك تدوينها على صفحات دفترك الأسود المضحك: والدك مات منتحراً. والتفاصيل، بإمكانك أن تأخذها من عمّتك وفاء".

ترك ليل الجملة تتدلى في الهواء الثقيل، واستدار ببطء، قميصه الأصفر الفاقع يختفي تدريجياً في ظلال الممر، تاركاً طه شاخصاً في منتصف غرفة النوم، هاتفه القديم يتذبذب في يده المرتجفة، وأنفاسه متلاحقة.

الفصل السادس

القفل الذي لا يرى





استسلم طه، في نهاية الأمر، لا بابتسامةٍ ولا بمصافحة، بل بصمتٍ طويل وقف فيه أمام ليل في منتصف الصالون، ينظر إلى الحقيبة المفتوحة، نصف الوجه الأبيض الذي لم يكمل ليل رسمه بعد، ثم قال أخيراً، بصوتٍ منهك أكثر منه راضٍ: "حسناً. لكن بشرط واحد لا أساوم عليه: لا يتدخل أحدنا في حياة الآخر. لا أسئلة، لا مراقبة، لا اقتحام لما لا يخصه".

أوماً ليل برأسه ببطء، وابتسم تلك الابتسامة التي لا تكشف عن نية واضحة أبداً، وقال: "وهذا ما أريده أنا أيضاً.. اتفقنا". ومدّ يده ليصافح طه، بيدٍ باردة قليلاً، جافة، بقبضة أقوى مما توقع طه من رجلٍ بهذا القوام النحيل.

منذ تلك الليلة، استقرت الحياة بينهما على إيقاعٍ غريب، متوازٍ لكنه لا يلتقي إلا في هوامش ضيقة من الوقت. كان طه يستيقظ في السادسة والنصف كعادته، يخرج إلى المدرسة، يعود في الرابعة، يصحح، يقرأ، يشاهد نشرة الأخبار المسائية، ينام في العاشرة والنصف. أما ليل، فكان ينام معظم النهار خلف باب غرفة النوم المغلق، لا يظهر إلا عند الغسق، حين يبدأ طه يشعر بالنعاس يتسلل إليه، فيمرّ ليل من أمامه بخطواتٍ خفيفة، منتعشاً كأن الليل وحده يمنحه طاقته، ويخرج دون أن يخبر طه إلى أين، ودون أن يُسأل.

كانا يلتقيان أحياناً في تلك الفترة الانتقالية القصيرة. حين يعود طه من نزته المسائية فيجد ليل يستعد للخروج. في تلك اللحظات القليلة، كان طه يجد نفسه يقف أمام ليل، يتأمل به بعينين نصف مقتعتين، ويقول بصوتٍ يخالطه تعبٌ دائم: "لو كنت حقيقياً..."

فيقاطعه ليل بضحكٍ قصيرة خفيفة، ويردّ بنبرةٍ ساخرة دافئة: "لو لم تكن ساذجًا ومعتوًها".

كانت هذه المبادلة قد تحولت، دون أن يقصدا، إلى نوعٍ من الطقس الصغير بينهما، جملتان متكرران يتقاذفانهما كلما التقيا.

لكن جملة ليل تلك، "والدك مات منتحراً"، لم تغادر رأس طه يومًا واحدًا. كانت تعود إليه في أوقاتٍ غير متوقعة، حتى قرر أخيرًا، بعد أسبوعين من ذلك الكشف المفاجئ، أن يذهب لزيارة عمته وفاء.

كان بيت العمّة وفاء في حيٍّ قديم هادئ، شقة صغيرة في الطابق الأول من بناية متواضعة، لكنها، فور أن فتحت الباب، بدت لطه كأنها امتدادٌ لشخصيتها بأكملها: كل شيء في مكانه بدقةٍ خانقة، المفارش مكوّية بلا تجعيدة واحدة، وحتى النباتات المنزلية القليلة كانت مشذبة بعناية مفرطة.

كانت العمّة وفاء امرأة في السبعين من عمرها، نحيلة، منتصبة القامة، ترتدي ثوبًا منزليًا رماديًا مكوّيًا بعناية، وشعرها الأبيض مربوطًا للخلف بإحكامٍ لا يسمح بخصلة شاردة واحدة. رجت به بابتسامةٍ حذرة، وأجلسته في الصالون، وأحضرت له كوب شاي دون أن تسأله إن كان يريد.

جلس طه على طرف الأريكة، ينظر إلى فنجانه دون أن يشربه، محاولاً مرارًا أن يفتح فمه ليسأل، فتغلق الكلمات في حلقه في كل مرة. لاحظت العمّة توتره، وسألته بصوتٍ هادئ إن كان كل شيء على ما يرام، فهزّ رأسه بسرعة أكبر مما ينبغي، ثم، وبصوتٍ خرج أخيرًا مبحوحًا، متقطعًا، سأله: "عمتي... أريد أن... أن أعرف الحقيقة عن أبي. كيف مات فعلاً".

توقفت العمّة وفاء عن الحركة تمامًا، يدها التي كانت تعدّل طرف الثوب فوق ركبتيها تجمدت في الهواء، وشحب وجهها بشكلٍ لافت. جلست ببطء على

الكرسي المقابل، ونظرت إليه طويلاً، عيناها تلمعان بدموعٍ لم تسقط بعد، ثم قالت بصوتٍ مرتجف: "من أخبرك؟"

لم يجب طه على الفور، فانهمرت دموع العمّة فجأة، بصمتٍ في البداية، ثم بشهقةٍ خافتة أخفتها بيدها المرتعشة عن وجهها. حين تماكنت نفسها بعد دقائق طويلة، بدأت تروي له، بصوتٍ متهدج يتخلله توقفات طويلة، كل ما أخفته العائلة عنه طوال حياته: أن والده كان يعاني من حالةٍ نفسية وعصبية عميقة، لا علاقة لها بأي "كهرباء في الرأس"، حالة أثقلت حياة من حوله جميعاً، وأن أمه، التي لا يذكر طه منها شيئاً لأنه كان طفلاً صغيراً جداً حينها، هربت من ذلك البيت تاركَةً إياه خلفها، بسبب ما وصفته العمّة بـ "تصرفات والده المريضة" التي لم تفضّلها أكثر. أخبرته كيف تنقّل بعدها بين بيوت أقارب والده، حتى أتى اليوم الذي انتحر فيه والده، وحاول الجميع، بدافع حبٍّ خائف لا قسوة، إخفاء تلك الحقيقة عنه.

جلس طه صامتاً طوال الرواية، وشعر بشيءٍ ثقيل يستقر في صدره، لا صدمة صريحة بقدر ما هو حزنٌ قديم يجد أخيراً اسماً حقيقياً له.

سألته العمّة، بعد أن جفّت دموعها قليلاً: "لكن من أخبرك بهذا يا طه؟ لم يكن يعرف هذا التفصيل أحد خارج العائلة الضيقة".

تردد طه، ثم أجاب بصوتٍ منخفض: "شخص يشاركني السكن في الشقة الآن. اسمه ليل".

ضاقت عينا العمّة وفاء فجأة، ونظرت إليه نظرة فاحصة، قلقة، ثم سألته بحذر واضح: "وهل ما زلت تتردد على عيادة الدكتورة سميرة؟" كانت نبرتها لا تخفي شكّاً عميقاً في أن ما يرويه لها منطقي أو حقيقي بالكامل.

ابتلع طه ريقه، وابتسم ابتسامةً باهتة، وقال بصوتٍ يحاول أن يبدو مطمئناً: "أنا بخير يا عمتي، لا تقلقي". ثم نهض بسرعة، قبل رأسها، وودّعها، وخرج من بيتها

المرتب الخانق إلى الشارع، رغم أنه، في أعماقه، لم يكن يشعر بأنه بخير على الإطلاق.

على الرغم من الاتفاق الصريح بينهما على ألا يتدخل أحدهما في حياة الآخر، إلا أن الفضول بدأ يأكل طه من الداخل، ببطء، كسوسي يقرض خشبة واحدة كل ليلة حتى تنهار. من هو ليل حقًا؟ كيف يعرف تفاصيل بهذه الدقة عن عائلة طه، تفاصيل لم تُروَ لأحد خارج تلك الجدران؟ في إحدى الليالي، بينما كان ليل واقفًا أمام المرأة الطويلة في الصالون يضع اللمسات الأخيرة على مكياجه، تظاهر طه بأن النعاس قد غلبه، فتثأب بصوتٍ مسموع، وتمدد على الكرسي الجلدي وهو يغمض عينيه نصف إغماضة، يراقب من تحت رموشه دون أن يتحرك. رآه ليل من زاوية عينه في المرأة، لكنه لم يعلّق، أكمل رسم وجهه بهدوئه المعتاد، ثم ارتدى سترته وخرج، مغلقًا الباب خلفه بصوتٍ خفيف.

انتظر طه دقيقتين كاملتين، ثم نهض بسرعة، وارتدى فوق ملابسه معطفًا داكنًا لا يستخدمه كثيرًا، ورفع ياقته عاليًا حول رقبته، ونزل الدرج بخطواتٍ سريعة صامتة، قلبه يخفق بعنفٍ يشبه خفقانه في تلك المواجهة الأولى في المطبخ.

تبع ظل ليل من مسافة آمنة عبر شوارع بدت له، في تلك الساعة المتأخرة، أطول وأكثر غرابة من المعتاد. بعد نحو عشرين دقيقة من المشي، وصل ليل إلى شارعٍ رئيسي مضاء بالأنوار الملونة، حيث تصاعدت أمامه واجهة سينما قديمة، وأمام المدخل وقف كشك خشبي صغير يفوح منه بخار الفوشار الساخن.

وقف طه متواريًا خلف عمود إعلاني ضخم، يراقب المشهد بعينين متسعيتين. رأى ليل يدخل من باب جانبي صغير خلف الكشك، ليخرج بعد دقائق قليلة بزيّه الكامل ووجهه المطلي بالأبيض والأحمر يلمع تحت أضواء النيون، وباقية بالونات هيليوم ملونة مربوطة بخيط طويل ترفرف فوق رأسه. بدأ ليل ينادي على المارة

بصوتٍ مرح مصطنع، يوزع البالونات على الأطفال بابتسامةٍ عريضة مرسومة لا تفارق وجهه، ينحني أمام طفلةٍ صغيرةٍ يعطيها بالونًا على شكل قلب، فتضحك، ويربّت على رأسها بلطف.

وقف طه خلف العمود طويلًا، غير قادر على الحركة، يشاهد ليل يتحرك بين الناس بأريحية غريبة، بحبوبة لا يعرفها فيه إطلاقًا حين يكونان وحدهما في الشقة، وكأن هذا الوجه المطلي، هذا المرح الصائب، هو الوجه الحقيقي، وأن الهدوء البارد الذي يعرفه طه هو القناع الفعلي.

عاد طه إلى الشقة قبل ليل بوقتٍ كافٍ، ووقف أمام المرأة نفسها، ونظر إلى انعكاسه طويلًا، وبدأ يهمس لنفسه بصوتٍ منخفض متكرر: "أنا لست غبيًا... أنا لست مريضًا... ما يحدث لي هو مجرد أمور سيئة، ولكن سأخطاها".

لم ينم تلك الليلة. جلس على نفس الكرسي الجلدي في الصالون، والقطعة الرمادية متكورة في حجره، عيناه مثبتتان على الباب، ينتظر.

عند الفجر، سمع مفتاحًا يدور في القفل، ودخل ليل، وجهه لا يزال يحمل آثار المكياج غير المزال بالكامل. توقف عند رؤية طه جالسًا مستيقظًا في الظلام المخفف.

"لم تنم بعد؟" سأل ليل بنبرة عادية.

"يجب أن نتحدث"، قال طه، ووقف من مكانه ببطء.

"دعنا من هذا الآن... أنا متعبٌ للغاية". قال ليل، وحاول أن يتجاوزَه نحو غرفة النوم.

"الآن"، قال طه بصوتٍ حازم، وقف بجسده معترضًا طريقه.

توقف ليل، ونظر إليه للحظة طويلة، ثم زفر بصوتٍ مسموع، وقال: "حسنًا، لننتحدث، ولكن بإيجاز. ماذا تريد؟"

"كيف عرفت بقصة انتحار أبي؟" سأل طه مباشرة.

أطلق ليل ضحكة قصيرة، جافة، وقال بنبرةٍ يمتزج فيها السخرية بشيءٍ أقرب إلى الإعجاب الملتوي: "كما أنك تنكرت وتبعثني متخفيًا إلى باب السينما لتعرف كيف أقضي ليلي، أظن أنني لم ألاحظ أنك كنت تتبطني طوال الطريق؟"

شعر طه بوجهه يسخن خجلًا، لكنه لم يتراجع، وقال بصوتٍ ثابت: "أنا فعلت هذا لأعرف حقيقة الشخص الذي يقاسمني شقتي. لكن أنت، ما هي دوافعك لتتحرى عني؟"

اقترب ليل خطوة واحدة، وقال بهدوءٍ بارد: "لنفس السبب تمامًا. لأعرف من هو هذا الشخص الذي دخل حياتي".

"أنت من دخل حياتي"، قال طه بصوتٍ ارتفع قليلًا.

ابتسم ليل ابتسامةً بطيئة، غامضة، وقال بصوتٍ منخفض هادئ: "هذا ما أنت تظنه. لكن الحقيقة هي أنك أنت من اقتحم حياتي، وأتيت للعيش في شقةٍ من حقِّي أنا".

ثم استدار ليل، ودخل الغرفة وأغلق بابها خلفه بهدوءٍ تام، تاركًا طه واقفًا وحيدًا في ضوء الفجر الرمادي الخافت، وجملته الأخيرة معلقة في الهواء كلغزٍ ثقيل لا يجد له طه، مهما حاول، أي تفسيرٍ يرضيه.

الفصل السابع

دفع غريب





بدأ الأمر بقشعريرة خفيفة سرت في جسد طه وهو يصحح دفاتر طلابه ذات مساء من أواخر نيسان، قشعريرة ظنها في البداية أثرًا عابرًا لتيار هواء بارد تسيل من نافذة نسي إغلاقها، لكنها تحولت، مع ساعات الليل، إلى حمى حقيقية أشعلت جسده بالكامل، حتى بات لا يقوى على النهوض من فراشه إلا بمجهودٍ يشبه رفع صخرة.

سمعه ليل، الذي كان قد وضع ماكياج المهرج على وجهه استعدادًا لخروجه المعتاد، يئنّ بصوتٍ خافت من غرفة النوم، فدخل عليه دون استئذان، ووضع كفه على جبينه بحركة سريعة واثقة، وسحبها فورًا كأنها لامست موقدًا. "أنت محترق"، قال بنبوةٍ فيها قلق حقيقي لم يعتد طه سماعه في صوته.

لم يخرج ليل تلك الليلة إلى عمله. بقي في الشقة، يتنقل بين المطبخ وغرفة النوم بخطواتٍ سريعة صامتة؛ أعدّ كمادات من قماشٍ مبلل بماءٍ بارد، وضعها على جبين طه بلطفٍ يخالف كل ما عرفه طه عن يديه القاسيتين، وأعدّ له شايًا بالليمون والزنجبيل، يحمل الكوب بيدٍ ويسند رأس طه بيدٍ أخرى ليساعده على الشرب دون أن ينسكب شيء على الفراش. جلس على حافة السرير ساعاتٍ طويلة تلك الليلة، لا يتحدث كثيرًا، يكتفي أحيانًا بتمرير كفه على شعر طه المبلل بالعرق بحركة آلية بطيئة، كأنها يد أم لا يد صديقٍ عابر.

في الصباح، حين بدأت الحمى تتكسر أخيرًا، فتح طه عينيه ليجد ليل نائمًا على الكرسي المجاور، رأسه مائل بزاويةٍ غير مريحة، وذراعه مطويتان على صدره، وكأنه رفض أن يغادر الغرفة طوال الليل. راقبه طه لدقائق طويلة في صمت، وشعر بشيءٍ دافئ يتسلل إلى صدره لا علاقة له بالحمى المنحسرة، شيء يشبه

اليقين، ولو المؤقت، بأنه لم يعد وحيداً في هذا العالم كما اعتاد أن يكون طوال حياته.

استيقظ طه بعد عدة أيام وقد بدأت عافيته تعود إليه تدريجياً. توجه نحو المطبخ لإعداد كوب الشاي بالأعشاب قبل انطلاقه إلى العمل، ولفت نظره على الطاولة مبلغٌ ماليٌّ بسيطٌ وضعه ليل إلى جانب ورقة صغيرة، خطَّ فيها كلماتٍ مقتضبة تشير إلى أن مصاريف الشقة أضحت كبيرة، وأن مشاركته في حملها باتت واجباً. ورغم أن المبلغ كان متواضعاً، إلا أن تلك اللفتة العفوية لمست قلبه.

بعد أسبوع من ذلك، وفي إحدى الأمسيات الهادئة، جلسا معاً في الصالون؛ طه على كرسيه الجلدي المعتاد، وليل ممدد على الأريكة المقابلة، والقطة نائمة بين قدميه. تحدث طه، بحذرٍ في البداية ثم بانسيابٍ أكبر، عن طفولته، عن سنوات الانتقال بين بيوت الأقارب، عن شعوره الدائم بأنه "الولد الهادئ" الذي لا يسبب مشاكل، عن كيف تحول هذا المديح إلى قفصٍ لا يقوى على كسره. استمع ليل إليه باهتمامٍ حقيقي، عيناها لا تفارقان وجه طه.

لكن حين حاول طه، مدفوعاً بذلك الدفء غير المعتاد، أن يسأل ليل عن طفولته هو، عن عائلته، ابتسم ليل ابتسامةً بطيئة، ومدَّ يده ليداعب رأس القطة، وقال بخفية لا تحمل أي توتر ظاهر: "حياتي مملة لدرجة لا تستحق عناء السرد. حدثني عنك أنت... حديثك أكثر مدعاةً للتسلية". ثم غيّر مجرى الحديث بسؤالٍ آخر عن مادة الرياضيات التي يدرّسها. لاحظ طه، من طرف عينه، أن سؤاله تبخّر دون إجابة، لكنه اختار ألا يضغط أكثر، إذ لم يكن مستعداً لأن يخاطر بهذا الدفء النادر مقابل فضولٍ يمكن تأجيله. قال لنفسه إنه سيسأل لاحقاً، حين يشعر ليل بارتياحٍ أكبر، دون أن يعترف حتى لنفسه بأنه ربما كان يخشى الجواب أكثر مما يخشى الصمت.

في وقتٍ لاحقٍ من تلك السهرة نفسها، أشار ليل، بعفويةٍ من يتحدث عن أمرٍ بديهي، إلى أن أنبوب المياه الرئيسي مخفيٌّ خلف الخزانة الكبيرة في الصالون. توقف طه للحظة، ونظر إليه بدهشةٍ خفيفة، وسأله ضاحكًا: "وكيف تعرف كل هذا؟ أنت لم تسكن هنا من قبل!"

هزَّ ليل كتفيه بلا اكتراث، وابتسم تلك الابتسامة الغامضة نفسها، وقال بخفة: "أشياء يعرفها المرء حين يقضي وقتًا كافيًا في مكان، حتى لو لم يكن يملكه".

ضحك طه معه، ضحكة حقيقية خرجت من صدره دون تصنع، وقال وهو يقف ليكمل تحضير الطعام: "لو كنت حقيقيًا، لأخبرتني بجدية".

فأجابه ليل، من مكانه على الأريكة، بنبرةٍ دافئةٍ ساخرة صارت مألوفاً بينهما الآن كتحيةٍ خاصة: "لو لم تكن ساذجًا ومعتوهًا، لتوقفت عن السؤال".

ضحكًا معًا تلك الليلة كثيرًا، وشعر طه، وهو يقف في مطبخه الصغير يقطّع الخضار على وقع موسيقى خفيفة، بأن هذه اللحظة بالذات، رغم كل غرابة الطريق الذي أوصله إليها، هي أقرب ما عرفه يومًا إلى معنى كلمة "بيت" بمعناها الكامل.

في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، وقف ليل عند باب غرفته المفتوح قليلًا، بلا حركة، ينظر إلى جسد طه النائم بهدوءٍ منتظم تحت الغطاء، بتعبيرٍ لا يستطيع أحد قراءته بوضوح، هو مزيجٌ غامضٌ لا يشبه ما اعتاد وجهه أن يُظهره في أي لحظةٍ أخرى. بقي واقفًا هناك دقيقة كاملة، ثم أغلق الباب بهدوءٍ تام، دون صوت.

الفصل الثامن

ابن الرصيف





جلس ليل وحيداً على الرصيف الخلفي للسينما، بعد أن أطفئت أضواء النيون الملونة وتفرّق آخر روادها في عتمة الشارع، وأراح ظهره على الجدار البارد، متعباً بذلك التعب الذي لا تصنعه ساعات العمل وحدها.

أدخل يده في جيب سترته، وأخرج محفظته الجلدية المهترئة، وفتحها ببطء، ليخرج منها ما لم يفارقه يوماً واحداً منذ سنوات طويلة: مفتاحاً صغيراً مصداً، أسنانه متآكلة، معلقاً بحلقٍ معدنية باهتة، لا يفتح باباً بعد الآن، ولم يعد يفتح شيئاً سوى الذاكرة.

أدار المفتاح بين أصابعه ببطء، كما يفعل كل ليلة في هذه الساعة بالذات، حين يخلو الشارع من المارّة ويخلو رأسه من ضجيج النهار، فتفتح أمامه، دون استئذان، أبواب لا يملك مفاتيحها إلا هو.

لم يكن ليل يعرف يوماً ميلاده بالضبط. لم يكن هناك من يحتفل به، ولا ورقة رسمية تثبته، ولا اسم عائلة يحمله بفخر. وُلد لأبوين يعملان بالتسول في أطراف المدينة، بين محطات الحافلات وأبواب المساجد، ولم يكلف أحدهما نفسه عناء تسجيله في دوائر النفوس؛ فبالنسبة إليهما، كان طفلاً آخر يزيد من عطف المارّة إن حُمِل بين ذراعيهما، لا إنساناً يحتاج إلى وجودٍ رسمي.

كان أول ما يتذكره من طفولته ليس وجهًا ولا صوتاً، بل بردًا. بردًا يسكن العظام قبل أن يسكن الجلد، وأرصفت تحفظ حرارة النهار قليلاً ثم تتخلّى عنها بمجرد مغيب الشمس، وأناسًا يمشون فوقه أو حوله وكأنه جزء من الرصيف نفسه، حجرًا آخر لا يستحق أن يُنظر إليه.

حين بلغ السابعة أو الثامنة تقريباً، لم يكن متأكداً من عمره، فقط يقيسه بطول جسده مقارنة بأطفال آخرين رآهم يدخلون المدارس بحقائب ملونة، تفرّق عنه والداه، كلٌّ في اتجاه، دون أن يُخبراه، ودون أن يعرف هو نفسه إن كان هذا انفصلاً مؤقتاً أم نهائياً. لم يحدث عنهما. لم يكن يعرف من أين يبدأ البحث أصلاً.

بدأ يتسكع وحيداً، طفلاً نحيلاً حافي القدمين غالباً، شعره مجعّد متشابك لا يعرف مشطاً، يتنقل بين أطراف الأحياء بحثاً عن مكانٍ يقيه المطر، حتى استقر، بلا قرارٍ واعٍ منه، عند مدخل بنايةٍ حجرية قديمة في حيٍّ هادئٍ نسبياً، بعيدٍ عن ضجيج السوق وعن أعين الشرطة التي كانت تطارد أطفال الشوارع بين الدّين والآخر بحجة "التنظيف".

كانت حنان تسكن الطابق الثالث من تلك البناية، مع زوجها الحاج كامل. امرأة في أواخر الثلاثينيات حينها، ذات وجهٍ مستدير هادئ، وعينين بنيتين واسعتين تحملان دوماً نظرة من ينتظر شيئاً لم يأتٍ بعد. كانت تقف عند نافذة المطبخ كل مساء، بعد أن تُنهي غسل الأواني، تتأمل الشارع في الأسفل بصمت، لا لأنها تنتظر أحداً بعينه، بل لأن الوقوف هناك كان الطقس الوحيد الذي يمنحها شعوراً بأن يومها لم ينتهِ بعد على فراغه.

في إحدى تلك الأمسيات، تقريباً من منتصف تشرين الثاني، لمحت ذلك الطفل النحيل، متكوّراً كقطعة قماشٍ مهملة عند عتبة المدخل، يرتجف تحت سترةٍ ممزقة أكبر من مقاسه بكثير. وقفت طويلاً تراقبه، دون أن تفكر بوعي كامل فيما ستفعله، حتى رآته يسعل سعالاً جافاً متقطعاً هزّ جسده الصغير مرتين، فتركت النافذة فجأة، ونزلت.

لم تسأله اسمه في تلك الليلة، ولا أي شيءٍ آخر. اكتفت بأن وضعت بين يديه طبقاً من الدجاج المحمّر بالفرن والأرز الساخن، يتصاعد بخاره في برد الليل، وقالت بصوتٍ خالف نبرة الكبار الذين اعتاد الهروب منهم: "كُلْ وأنت دافئ، لا تأكل وأنت بارد، فالطعام يخون المعدة الباردة".

انكبّ الطفل على الدرجة الحجرية يأكل بنهمٍ مذهول. كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يتذوق فيها طعم الدجاج، بعد سنواتٍ من الاستماع إلى حديث الناس عنه. واختلاس رائحته الشهية كلما مرّ جائعاً أمام أبواب المطاعم. وقفت هي تراقبه بصمتٍ عميق، كمن يتأمل أمراً انتظره طويلاً دون أن يتخيل ملامحه. وما إن جرف آخر حبة أرز، حتى سألته رقيقةً: "ما اسمك؟"

هزّ الطفل كتفيه. لم يكن لديه اسم يُقال بثقة؛ نادته أمه مرة "يا ولد" ومرة بأسماء متغيرة لا يذكرها. فقالت حنان، بابتسامةٍ خفيفة لم يفهم معناها حينها: "سأناديك ليل إذن، لأنني وجدتكَ في الليل، وليس لأن الليل مخيف كما يقولون، بل لأنه الوقت الذي تهدأ فيه الدنيا وتصبح الأشياء أوضح".

كان ذلك أول اسم يُمنح له عن طيب خاطر، لا عن إهمال.

كان الحاج كامل رجلاً في الخامسة والأربعين حينها؛ عريض الكتفين، ذا لحيةٍ مشدبةٍ بعناية تخالطها حشمةٌ وقار، وصوتٌ جهوريٌّ يسبق خطاه إلى أي غرفةٍ يدخلها. كان يعمل في دكانٍ صغيرٍ لبيع الأقمشة قرب السوق القديم ورثه عن أبيه، ويُعرف بين الجيران والزبائن بصرامته في الحساب، ولطفه الخفي الذي لا يُظهره إلا لمن خبره جيداً.

لم يكن رجلاً يقول "أحبك" بسهولة؛ لم يقلها لحنان طوال سنوات زواجهما، رغم أنه، في كل ليلةٍ تقريباً، كان يترك على الوسادة إلى جوارها قبل أن ينام قطعةً حلوى صغيرة اشتراها في طريق عودته، أو زهرةً واحدةً قطفها من بائعٍ متجول، دون أن يذكر ذلك صباحاً، ودون أن يسألها إن كانت قد أعجبتها.

وحين رأى في تلك الليلة "الولد الغريب" يجلس في مطبخه يأكل بشراسة، اعترض بشدة؛ وقف عند باب المطبخ مكتوف الذراعين، وقال لحنان بصوتٍ خفيضٍ حاد: "لا نعرف من أين جاء هذا الولد؛ قد يكون سارقاً صغيراً، أو يجر خلفه من هم أكبر منه سنّاً وأسوأ نية. أطعميه إن شئت، لكن لا تدعيه يبيت هنا."

لكن حنان، في تلك الليلة تحديداً، لم تُجِبْ؛ نظرت إليه فقط تلك النظرة التي تعلم الحاج كامل، عبر سنوات الزواج، أنها تعني ما هو أبعد من أي جدال: نظرة المرأة التي حُرمت من طفلٍ تحمله في أحشائها، وترى الآن أمامها طفلاً بلا أحدٍ يحمله في قلبه. لم يقل الحاج كامل شيئاً آخر تلك الليلة، تركهما وذهب لينام، لكنه في صباح اليوم التالي وجد الولد لا يزال نائماً على بساطٍ صغير فرشته له حنان في زاوية المطبخ... فلم يوقظه، ولم يطرده.

استمر الأمر على هذا النحو أسابيع، ثم أشهرًا: حنان تُصِرُّ بصمتٍ لا يقبل النقاش، والحاج كامل يتراجع خطوة، ثم خطوة أخرى، دون أن يعترف صراحةً بأنه بدأ يتقبل وجود هذا الطفل، حتى جاء اليوم الذي دخل فيه إلى المحل ووجد ليل، الذي كان قد بلغ التاسعة تقريبًا، يساعد أحد الصبية في طيِّ الأقمشة بمهارةٍ ودقة لم يتوقعهما من طفلٍ شارع. وقف الحاج كامل يراقبه من بعيد دقائق طويلة، ثم اقترب، ووضع يده على كتف الولد النحيل، وقال بصوتٍ لا يزال جافاً لكنه يحمل، لأول مرة، طيفاً من الاعتراف: "إن أردت أن تتعلم شيئاً مفيداً، تعال إلى هنا بعد المدرسة." ثم أضاف، وهو يبتعد بخطواتٍ سريعة كأنه يخشى أن تُسمع الجملة التالية: "لديك يد ماهرة يا ولد".

خلت عبارته من كلمة "أحبك"، لكنها، بالنسبة لطفلٍ غريبٍ لم يعتد أن يتلقى كلمةً طيبة من رجلٍ بالغ، كانت كافيةً لتتحفر في ذاكرته إلى الأبد.

استنكف الحاج كامل عن إظهار عاطفته علناً، بيد أن أهل الحي جميعهم خبروا معدنه الأصيل دون أن يتفوه بحرف. كان يسكب للبائع المتجول العجوز، الذي يمر كل ظهيرة أمام دكانه، كوبٍ شاي، ويتغاضى أحياناً عن ثمن ما يبتاعه. وكان يسدد فاتورة الدواء لجارية أرملة في الخفاء، تاركاً إياها تعتقد أن الصيدلي أخطأ في الحساب. وحين تسللت قطعة رمادية هزيلة من زقاقٍ مجاور لتربض عند مدخل البناية في زهمير الشتاء، امتنع عن زجرها كما فعل معظم الجيران بالصراخ والحصي؛ بل أفرد لها دون علم أحد صحنَ ماءٍ ومأكلاً خلف العتبة كل

صباح، حتى ألفت القعود عند قدميه كلما خرج أو دخل... كأنها الوحيدة التي سبرت غوره، الغور الذي لا يدرك كُنْهه سوى حنان وليل.

كانت أم زهير، تلك الجارة التي عاشت في الطابق الثاني طوال تلك السنوات، تحكي دومًا، بصوتها المبحوح الذي لا يخلو من امتنانٍ خفي تحت طبقة النميمة، كيف أن الحاج كامل هو من دفع أجرة الطبيب حين مرض ابنها الصغير مرضًا خطيرًا ذات شتاء، دون أن يذكر ذلك أمام أحد، ودون أن يقبل شكرًا حين عرفت الحقيقة لاحقًا من الطبيب نفسه. وحين اختفى الحاج كامل لاحقًا، كما ستروي هي لطفه بعد فترة، بغضبٍ يخفي وراءه حزنًا حقيقيًا، لم يكن غضبها من رجلٍ لئيم، بل حسرة إنسانيةٍ فقدت رجلًا أحسن إليها دون مقابل، ورحل دون أن يودّعها كما توقعت من رجلٍ بهذا القدر من الوفاء.

كبر ليل بين تلك الجدران أكثر مما كبر في أي مكانٍ آخر. علّمته حنان القراءة بصبرٍ لا حدود له، رغم أنه كان طفلًا صعبًا في بداياته، غريب الأطوار، يصمت أحيانًا لساعاتٍ طويلة دون سبب ظاهر، ويثور فجأة على أتفه الأشياء إن شعر أن أحدًا يحاول انتزاع شيءٍ منه، ولو كان مجرد كوب ماء ترك عمدًا في مكانه المعتاد.

كانت أمسياتهما طقسًا لا يتبدل: تجلس حنان على كرسيّها الجلدي المفضل في الصالون، ذلك الكرسي الذي سيرثه طه لاحقًا مع الشقة دون أن يعرف تاريخه، ويجلس ليل عند قدميها على الأرض، رأسه مسندٌ إلى ركبته، بينما تمرر أصابعها في شعره المجعد وتقرأ له بصوتٍ خافت قصصًا من كتبٍ قديمة اشترتها بنفسها من بائع الكتب المستعملة قرب الجامع.

"اقرأ لي عن السندباد مرة أخرى"، كان يطلب منها، رغم أنه سمع القصة عشرات المرات، فتضحك حنان ضحكتها الهادئة وتقول: "ألم تتعب من هذا البحار المسكين وهو يتوه في كل مرة؟" فيجيب، بجديّة طفولية لا تحتمل المزاح: "لا، لأنه دائمًا يعود إلى بيته في النهاية".

كانت هذه الجملة، التي لم يفهم ليل ثقلها الحقيقي حينها، تحمل، بعد سنوات، كل ما سيصبح عليه: رجل يبحث، طوال حياته، عن بيتٍ يعود إليه، تمامًا كما كان السندباد.

في عيد ميلاده الذي اختارت له حنان تاريخاً بنفسها، الحادي عشر من تشرين الثاني، لأنه اليوم الذي عثرت عليه فيه، كانت تخبز له كعكةً صغيرة كل عام بيديها، مهما ضاق الوقتُ أو المال، وتغرسُ فوقها شمعةً واحدة، تقول له وهي تضيئها: "لا تتمنَّ أشياء كثيرة... تمننْ شيئاً واحداً فقط، لكن تمننْه بكل قلبك." وكان ليلٌ، في كل عام، يتمنى الأمنية نفسها دون أن يخبرها بها: ألا تتغير هذه الغرفة، ألا يتغير هذا الكرسي، وألا يتغير صوتها وهي تقرأ له.

بدأ الأمر بسعالٍ خفيف لم تعره حنان اهتماماً كبيراً، ظننته أثرًا لبردٍ عابر مع تبدل الفصول. لكن السعال استمر، وبدأ يرافقه تعبٌ غريب لم تعرفه من قبل، تعبٌ لا تُذهبه ساعات النوم، وفقدان تدريجي للشهية جعل ثيابها تتراخي على جسدها شهراً بعد شهر.

بعد أسابيع من كتمان قلقه وهو يراقب ذبولها، أصرَّ الحاج كامل على عيادة الطبيب، متجاوزاً طمأننتها المكررة بأنها "بخير، ولا داعي لكل هذا التهويل". وفي غرفة الانتظار تلك الظهيرة، جلس ليل، وقد ناهز مطلع العشرينيات، يداه مشدودتان إحداهما إلى الأخرى، ونظره معلقٌ بالبواب المغلق الذي اختفت خلفه حنان مع الحاج كامل، فيما صدره يخفق بدقاتٍ غريبة... دقات الخوف المبهم الذي لم يجد له اسماً بعد.

حين خرجا، كان وجه الحاج كامل شاحباً بشكلٍ لم يره ليل عليه من قبل، ذلك الرجل الذي لم يظهر ضعفاً أمام أحد طوال حياته. لم يقل شيئاً. وضع يده على كتف ليل، بقوة أكبر من المعتاد، وقال بصوتٍ متهدج لم يعرفه ليل في نبرته: "سنعتني بها معاً يا بني."

كانت تلك أول مرة يناديه فيها الحاج كامل بـ"بني"، وستكون شبه الأخيرة.

تدهورت حالة حنان بسرعةٍ لم يمهلهما المرض للاستعداد لها كما ينبغي. تحول المنزل، خلال أسابيع قليلة، من بيتٍ مليء بصوت القراءة المسائية إلى مكانٍ تسوده رائحة الأدوية وصوت آلة الأوكسجين الخافت.

جلس ليل بجانب فراشها في تلك الأيام الأخيرة ساعاتٍ طويلة، يمسك يدها النحيلة التي فقدت دفأها المعتاد، ويحاول أن يقرأ لها كما اعتادت هي أن تقرأ له، لكن صوته كان يتقطع كل مرة عند الفقرات نفسها، فتبتسم حنان بضغفٍ، وترتبت على يده بأصابعها الباردة، وتقول له بصوتٍ أصبح همساً: "لا بأس يا ليل، أكمل القصة في رأسك، أنا أسمعها معك".

في إحدى تلك الليالي الأخيرة، حين ظنّ الجميع أنها نائمة، فتحت عينيها فجأة، ونظرت إليه نظرة طويلة صافية، لا أثر فيها للتعب الذي أرهق جسدها طوال الأسابيع الماضية، وقالت له، بصوتٍ واضح مفاجئ: "أنت ابني يا ليل. لم أحمله في بطني، لكنني حملته في كل شيء آخر. لا تنسَ هذا أبداً، مهما حدث لاحقاً، ومهما ابتعدت عني".

لم يفهم ليل حينها ثقل جملتها الأخيرة "مهما ابتعدت عني"، لكنها ستطاردده لاحقاً كنبوءةٍ لم يتوقع أن تتحقق بهذه القسوة.

ماتت حنان بعد ثلاثة أيام، في هدوءٍ يشبه هدوء نومها كل ليلة، وكأن جسدها اختار أخيراً أن يستريح من معركةٍ خاضتها بصمتٍ طوال أشهر.

لم يبك ليل أمام أحد في يوم الجنازة، بينما كان الحاج كامل، الرجل الذي لم يُظهر دمعة واحدة أمام الناس طوال حياته، يقف عند القبر منهزماً، جسده يرتجف بصمتٍ تحت عباءته السوداء، ويداه تتشبثان بحافة القبر كأنه يخشى أن يسقط فيه هو الآخر.

عاد الحاج كامل إلى الشقة بعد الجنازة رجلاً مختلفاً كلياً. توقف عن فتح المحل للأسابيع، ثم حين عاد، كان يجلس خلف طاولته صامتاً، لا يبادر بحديث، يردّ على الزبائن بجملي مقتضبة لا تشبه دفاء تعامله القديم. وحين يعود إلى الشقة مساءً، كان يجلس أمام كرسي حنان الفارغ، لا يجلس عليه هو، بل ينظر إليه فقط، ساعاتٍ طويلة. وكأنه ينتظر أن تعود صاحبتة إليه من مكانٍ ما.

أما ليل، فتجمّد شيء في داخله لم يذّب مجدداً. لم يعرف كيف يعبر عن الحزن بالطرق التي يعرفها الناس العاديون، بالدموع، بالانهيار المرئي. بدلاً من ذلك، تحوّل حزنه، ببطء لا يرى حتى من الحاج كامل نفسه، إلى تعلقٍ متصاعد بالمكان نفسه، بجدران تلك الشقة وأثاثها ونوافذها وحتى بقعة الرطوبة الصغيرة في زاوية السقف التي كانت حنان تشكو منها كل شتاء، وكأن كل تفصيل فيها أصبح الامتداد الأخير لوجودها في هذا العالم.

كان يجلس على الأرض، في المكان نفسه الذي اعتاد الجلوس فيه عند قدمي حنان، أمام الكرسي الفارغ، ساعات طويلة كل مساء، لا يقرأ، لا يتحدث، فقط يجلس، وكأن جسده لا يزال ينتظر يداً لن تمر في شعره مرة أخرى.

مرّت أشهر الحداد الأولى بثقلٍ خانق على الحاج كامل، حتى جاء ذلك المساء من أواخر الخريف، حين استدعى ليل، وجلس أمامه على الكرسي الجلدي — كرسي حنان — للمرة الأولى منذ وفاتها، وقال له بصوتٍ جافٍ لا يحتمل النقاش: "قررت بيع الشقة يا ليل. سأسافر للعيش مع ابنة أخي في الخارج. لم يعد بإمكانني البقاء في مكانٍ أراها في كل زاوية منه ولا أجدها".

شعر ليل، في تلك اللحظة، وكأن الأرض تُسحب من تحت قدميه. قال بصوتٍ يتوسل رغم محاولته إخفاء ذلك: "لكن هذا بيتنا يا عمّي. بيتها. لا يمكنك أن تبيعه".

نظر إليه الحاج كامل نظرة طويلة، تعبٌ عميق يملأ عينيه، وقال بصوتٍ أخفض قليلاً، لكنه لا يزال حازماً: "أعرف ما يعنيه هذا المكان لك يا ليل. لكنني لا أستطيع أن أموت هنا وأنا أرى وجهها في كل ركن. أحتاج أن أرحل".

حاول ليل، في الأيام التالية، بكل ما يملك من كلماتٍ يعرف كيف يستخدمها، أن يثنيه عن القرار. توسّل إليه، ذكّره بكل ما فعلته حنان لأجل هذا البيت، بكل قصةٍ قرأتها له فيه، لكن الحاج كامل، رجلٌ عنيد بطبعه، لم يتزحج.

في إحدى تلك المحاولات الأخيرة، فقد ليل أعصابه للمرة الأولى أمامه، وقال بصوتٍ مرتفع، غير معتاد على نفسه: "أنا كل ما تبقى من ذكراها هنا، ألا يعني هذا شيئاً لك؟"

وهنا، في لحظة غضبٍ لم يقصد بها الحاج كامل ربما كل هذا الألم، لكنها خرجت منه بثقل رجلٍ منهك من حزنه الخاص، قال: "أنت شابٌ لا صلة رسمية له بالعائلة أصلاً، ليل. أحببتك حنان، وأحببتك أنا بطريقتي، لكن هذا لا يمنحك حق تقرير مصيري ومصير بيتي".

سكتت الغرفة بأكملها بعد هذه الجملة. لم تكن كلمة قاسية بمقاييس الحاج كامل نفسه، بل انفجار رجلٍ محطم يدافع عن حقه في الرحيل من مكانٍ يؤلمه. لكنها، بالنسبة لليل، وصلت كطعنةٍ في أعرق نقطة فيه: كل سنوات طفولته التي قضاها بلا اسمٍ رسمي، بلا شهادة ميلاد، بلا انتماءٍ حقيقي لأي أحد، عادت إليه دفعة واحدة في تلك الجملة، وكأن الحاج كامل، دون أن يقصد، أعاده بضربةٍ واحدة إلى ذلك الرصيف البارد الذي انتشله منه بنفسه قبل سنوات.

عاد ليل إلى الشقة تلك الليلة متأخراً، بعد أن قضى ساعاتٍ يمشي في الشوارع محاولاً تهدئة شيءٍ يغلي في صدره. وجد الحاج كامل مستيقظاً رغم الساعة المتأخرة، جالساً على كرسي حنان، يمسك بيده كوب شايٍ بارد لم يشربه.

حاول ليل، بصوتٍ أهدأ هذه المرة، أن يعيد فتح الموضوع، أن يقترح حلًا وسطًا: أن يبقى هو في الشقة ويدفع إيجارًا رمزيًا، أن يُبقى الحاج كامل الشقة باسمه ويسافر متى شاء دون بيعها. لكن الحاج كامل، منهكًا من نقاشٍ استمر أيامًا، رفض بحدّةٍ أكبر هذه المرة، ونهض واقفًا بغضبٍ، وقال بصوتٍ ارتفع فجأة: "انتهى الأمر يا ليل! القرار متخذ، والأوراق ستُوقع هذا الأسبوع!"

دفعه بيده بعيدًا عنه، دفعه لم تكن بقصد الإيذاء، بل بدافع رجلٍ يحاول أن يُنهي جدالًا استنزف ما تبقى من صبره. لكن ليل، الذي كان واقفًا قريبًا جدًا من حافة الطاولة الخشبية الصغيرة، فقد توازنه، واصطدم كتفه بها، فتزحزحت الطاولة، وترنّج الحاج كامل نفسه للحظة محاولاً استعادة توازنه بعد الدفعة، فامتدت يد ليل، بردّ فعلٍ غريزي لا تفكير فيه، لتمسك بذراع الحاج كامل، لكن الأخير، مرتبكًا، تراجع خطوة إلى الوراء بدل أن يستقر، فارتطم رأسه بحافة الطاولة الخشبية الحادة بصوتٍ جافٍ خافت لم يستغرق أكثر من ثانية واحدة.

سقط الحاج كامل على الأرض، صامتًا، بلا صرخة، بلا كلمة أخيرة.

وقف ليل مسفرًا في مكانه، قلبه يخفق بعنفٍ لم يعرفه من قبل، أذناه تطنّان، ويداه ترتجفان دون سيطرة. ركع بجانبه، ونادى عليه بصوتٍ متقطع: "عمي كامل... عمي كامل، انهض..."

لم يتحرك الحاج كامل. بدأ خيْطٌ رفيع من الدم يتسلل من مؤخرة رأسه، يتوسع ببطء على البلاط الأبيض تحت الضوء الخافت للمصباح الوحيد المضاء في الصالون.

مدّ ليلٌ يده بذعرٍ ليضغط على الجرح بقطعة قماشٍ التقطها من على الأريكة، وحاول بأصابع ترتجف أن يوقف النزيف، لكن يديه كانتا مرتبكتين وغير مدربتين، وكانت كل ثانية تمرّ ثقيلةً كأنها ساعة كاملة. فكّر للحظة أن يتصل بالإسعاف، وامتدت يده نحو الهاتف على الطاولة، لكن صوتًا

بارداً في رأسه، صوتاً لا يدري من أين انبعث، همس له بأن سيارة الإسعاف تعني الأسئلة، وأن الأسئلة ستجرّ تحقيقاً، والتحقيق سيفضي إلى كشف اسمه؛ هو الذي لا اسمَ رسمياً له أصلاً، بجوار جثة رجلٍ في شقةٍ لا يملكها.

توقفت يده في منتصف الطريق نحو الهاتف.

جلس بجانب الجسد، لا يفعل شيئاً سوى المراقبة، بينما استمر النزيف، أبطأ فأبطأ، حتى توقف تماماً مع سكون الجسد الكامل. لم يكن قد مرّ أكثر من عشر دقائق، لكنها بدت ليل أطول دقائقٍ في حياته، دقائقٍ شعر فيها بجسده يرتجف من الداخل بموجاتٍ متتالية من الأدرينالين، فيما عقله يفصل شيئاً فشيئاً عما يراه، كأنه يشاهد المشهد من زاويةٍ بعيدة، لا من داخل جسده نفسه.

لم يلكِ ليل تلك الليلة أيضاً. جلس بجانب الجثة وقتاً طويلاً، عقله يعمل بتلك البرودة الغريبة التي تصيب الإنسان أحياناً في أشد لحظات الفوضى، تلك القدرة على التخطيط بدقة وسط انهيارٍ داخلي كامل.

نهض أخيراً، وأحضر ملءة السرير البيضاء من غرفة النوم، غرفة حنان والحاج كامل، وفرشها على الأرض بجانب الجسد، بحركاتٍ آلية بطيئة، ولفّ بها الجثة بعناية غريبة، كأنه يغطي جسداً نائماً لا جثة رجلٍ توفي للتو. انتظر بعدها ساعاتٍ طويلة، جالساً في الظلام، حتى خفت أصوات الشارع تماماً وحلّ سكون منتصف الليل المتأخر، ثم حمل الجسد الملفوف، بقوةٍ لم يكن يعرف أنه يملكها، ونزل به عبر الدرج الخلفي للبنية، ذلك الذي لا يستخدمه أحد بعد التاسعة مساءً.

نقله في سيارة الحاج كامل نفسها، إلى منطقةٍ نائية خارج المدينة كان يعرفها من رحلاتٍ قديمة معه، ودفنه هناك بيديه، تحت ضوء قمرٍ خافت، بمعولٍ وجده في صندوق سيارة الحاج كامل نفسه.

عاد إلى الشقة قبيل الفجر، ووقف طويلًا أمام بقعة الدم الجافة على البلاط. مسحها بعناية وسواسية، مرة، ثم مرة أخرى، حتى لم يتبق أثر واحد. مسح كل سطح لمسحه بيديه، مقابض الأبواب، حافة الطاولة، حتى كوب الشاي الذي لم يشربه الحاج كامل، وكأنه يمحو ليس فقط الأدلة، بل الليلة بأكملها من الوجود.

جلس بعدها على الأرض، في المكان نفسه الذي اعتاد الجلوس فيه عند قدمي حنان، أمام الكرسي الجلدي الفارغ، وبقي هناك حتى طلعت الشمس، بلا دموع، بلا صوت، فقط فراغٌ ثقيل يملأ الصدر أكثر من أي حزن عرفه من قبل.

كان تفكيره في تلك الساعات، حين عاد إليه أخيرًا، بسيطًا وباردًا تمامًا، جملة واحدة كررها لنفسه حتى صدّقها: "لو مات، لن تُباع الشقة. لن أعود إلى الشارع من جديد. لن أفقد آخر رائحة تذكرني بأمي حنان".

ظن ليل، في تلك الليالي الأولى بعد الجريمة، أن مشكلته قد حُلّت نهائيًا، وأن الشقة ستبقى معلّقة بلا وريثٍ يعرف تفاصيلها. لكنه، بعد أيام قليلة، وأثناء مروره قرب مكتب السمسار أبي خالد بمحض الصدفة، سمع عبارة عابرة من رجلٍ يخرج من المكتب يتحدث في هاتفه عن "شقة الحاج كامل التي أنجز بيعها الأسبوع الماضي".

تجمّد ليل في مكانه وسط الشارع.

عاد إلى البناية، ووقف أمام مدخلها ساعة كاملة، يحاول أن يقنع نفسه بأنه أساء الفهم، حتى رأى، بعينه، سيارة تنقل حقائب إلى الطابق الثالث، وسمع، من صاحب الدكان المجاور، حين سأله بصوتٍ بدا له غريبًا حتى في أذنيه هو: "من انتقل إلى شقة الحاج كامل؟"، فأجابه الرجل بلا مبالاة، وهو يرص علب الحليب على الرف: "رجل جديد، معلم رياضيات، اسمه طه، هادئ الطباع، لا يتحدث كثيرًا".

اكتشف ليل، بصدمةٍ باردة أشد قسوة من الجريمة نفسها، أن عملية البيع كانت قد أنجزت رسميًا، وأُبرمت أوراقها، قبل تلك الليلة بأيام قليلة، أي أن الشقة

كانت، من الناحية القانونية، قد خرجت من يد الحاج كامل بالفعل قبل أن يُراق دمّه فوق بلاطها. لم تكن جريمته قد أنقذت شيئاً. لم تكن قد أعادت شيئاً. كانت، ببساطة موجهة، فعلاً عبثياً تماماً، لم يحقق له إلا خسارة إضافية: خسارة الرجل الذي ربه، مقابل لا شيء، بينما القرار الذي حاول منعه بالقتل كان قد نُفذ فعلياً قبل أن يرفع يده.

لم يحمل اسم "طه"، في تلك اللحظة، أي وزنٍ خاص بالنسبة لليل. كان مجرد كلمةٍ عابرةٍ إضافية تُضاف إلى فداحة الاكتشاف العبثي الذي لا يزال يهضمه، وقفةً أخيرة أمام نافذة الطابق الثالث المضاعة حديثاً بضوءٍ لا يعرف صاحبه. قبل أن يتعد عن البناية تلك الليلة بخطواتٍ ثقيلة، تاركاً خلفه كل شيء عرفه يوماً كبيتٍ حقيقي.

لم يدفعه هذا الاكتشاف إلى الندم، بقدر ما دفعه، بعد أسابيع من التيه في شوارع لم يعد يعرف فيها اتجاهًا واطئًا، إلى قرارٍ جديد بارد، بالمنطق نفسه الذي دفعه إلى فعلته الأولى: بما أن تلك الشقة "بيته" بحكم الذاكرة والتعلق، لا بحكم أي عقدٍ رسمي لم يحمل اسمه يوماً، فلن يسمح لغريب اسمه "طه" أن يستولي عليها بهذه البساطة، وكأن حق ملكيته النفسي، ذلك الحق الذي بناه بسنواتٍ من الطفولة المسروقة والدفع المستعار، أقوى من أي توقيعٍ على ورقة.

قرر أن يدخل حياة هذا الغريب، أن يعيش في ظله كما اعتاد دائماً أن يعيش على هامش حياة الآخرين، غير مرئي، غير مسجل، غير موجود رسمياً، لكنه حاضر رغم كل شيء، حضوراً لا يقوى أحد على محوه.

في الأسابيع التي تلت استقراره التدريجي في حياة طه، بدأ ليل، دون أن يخطط لذلك بوعي كامل في البداية، يراقبه من كُتب: طريقته في ترتيب مفاتيحه بزاويةٍ محددة كل مساء، خوفه من كل ما هو غير متوقع، توتره الدائم الذي ذكره، على نحوٍ غريب لم يفهمه ليل تماماً، بوحدته هو نفسه قبل أن تنزل إليه حنان تلك الليلة البعيدة.

وذات صباح، بعد أن غادر طه إلى عيادة الدكتور سميّة في إحدى زيارته المبكرة، تسلل ليل، بدافع فضولٍ لم يملك كبحه، إلى الدرج الذي يُغلق فيه طه أوراقه العائلية القديمة. وراء الوثائق الرسمية وسجلات الإرث، عثر على ملفٍ أصفر طالّ عليه العهد، يضمّ تقريراً طبياً أهمله الزمن ورسالةً منسية موقعة باسم "وفاء". لم تكن الرسالة تصرّح بشيء، بل تلمّح في حاشية جانبية بخطٍ متصلح إلى "الفاجعة التي تلت غياب أخي المفاجئ".

لم يكن التقرير شافياً ولا الملاحظة مكشوفة، غير أن ليل، بذكائه الحاد في استقراء ما وراء النصوص، ذلك الذكاء الذي نحتته سنواتُ التردد ومراقبة الإيماءات ونبرات الصوت، ربط بين الحواشي المطوية ومحتوى التقرير القديم. أدرك في لحظةٍ خاطفة الحقيقة التي غابت عن طه نفسه أو يتجاهلها بحذر؛ حقيقةً سيتخذها لاحقاً سلاحاً مذكوراً: أن رجلاً صارماً ومسكوناً بالنظام كطه، يرتعد هلعاً من خيانة عقله، لم يأتِ خوْفُه من فراغ... بل هو إرثٌ ثَقِيلٌ من أبٍ انطفأ بصمته وانتحر بعيداً عن أعين الجميع.

الفصل التاسع

ما لم يُقل





في مساءٍ من أواخر أيار، عاد طه من المدرسة بمزاجٍ مغاير، أكثر انتعاشاً مما اعتاد، بعدما طوى عاماً دراسياً شاقاً انتهى بانتصاره الكامل. خلع معطفه وعَلِّقه في مكانه المعتاد، ثم وقف في منتصف الصالون، يده على خصره، يجول بعينٍ فاحصة كمن يكتشف المكان للوهلة الأولى بعد طول غياب.

"قررتُ أن أُغيِّر بعض الأثاث"، قالها بنبرةٍ حماسية لم يعتد سماعها من نفسه وهو يشير بذقنه نحو الكرسي الجلدي: "هذا الكرسي القديم، مثلاً... بالٍ جداً والجلد متشقّق من كل جانب. لم يخطر ببالي استبداله من قبل لأنني، بصراحة، لم أشعر يوماً أن هذا المكان ملكي بالكامل، وأظن أن الوقت قد حان".

كان ليلٌ واقفاً عند نافذة المطبخ، ظهره مواربٍ نحو الصالون وهو يُعدّ قهوته الليلية قبل خروجه المعتاد. تجمدت يده في الهواء والملقعة بين أصابعه، تجثو على طرفها قطرة قهوةٍ تتأرجح دون أن تسقط. لم يستدر فوراً؛ بل لبث ثواني معدودة ثابتاً كتمثال، وقد انشُدّ كتفاه فجأةً تحت قميصه الأسود كأن خيطاً خفياً جُذب من الداخل.

ثم استدار ببطء، ونظر إلى طه بعينين ضاقتا حتى صارتا شقين رفيعين:

"لن تلمسَ شيئاً من الأثاث... وتحديداً ذلك الكرسي".

خرجت الجملة خفيضة، لكنها حملت ثقلًا لم يعتده طه في صوت ليل من قبل؛ ثقلًا يشبه صريرَ بابٍ حديدي يُغلق للأبد.

استغرب طه، وضحك ضحكة قصيرة غير مصدقة، وهو يميل رأسه قليلاً إلى جانب. "إنه مجرد كرسيّ، ليل. جلدٌ متشقق، وأخشابٌ صرّارة. لا أفهم لماذا يهتمك الأمر أصلاً".

وضع ليل كوب القهوة على حافة الرخام بحركةٍ حادة، أصدرت طريقة معدنية جافة ارتدت صداها في الصالون الساكن. تقدم خطوة من المطبخ.

"قلت لن تلمسه وكفى".

ارتفع صوته درجة كاملة هذه المرة، وامتدت عضلة فكه، تشدّ تحت جلده حتى بانّت زاويتها الحادة.

شعر طه بشيء من العناد يستيقظ فيه، عنادٌ جديد لم يعرف نفسه به قبل أشهر قليلة. فرد كتفيه، تمامًا كما دربه ليل نفسه أمام تلك المرأة، وقال بصوتٍ أكثر حزمًا: "هذا بيتي، ليل. وأنا من يقرر ما يبقى فيه وما يتغير".

"بيتك؟" ضحك ليل ضحكة قصيرة جارحة، لا فرح فيها على الإطلاق، ضحكة خرجت من صدره لا من حلقه. "بيتك أنت؟"

"نعم، بيتي"، أصرّ طه، وقد بدأ صوته يرتفع أيضًا، مدفوعًا بشقّةٍ اكتسبها حديثًا لم يعرف كيف يكبحها في هذه اللحظة بالذات. خطأ خطوة نحو ليل، لا بعيدًا عنه كعاداته القديمة. "دفعته ثمنه، ووقّعت الأوراق، وسكنته وحدي قبل أن تأتي أنت. لا أفهم كيف تحوّل كرسيّ إلى معركة".

اشتعل شيء في عيني ليل عند تلك الجملة بالذات، شيء لم يره طه من قبل بهذا الوضوح: بريقٌ حادّ، رطبٌ تقريبًا، يشبه بريق من يقف على حافة

شيء لا يستطيع وصفه. اقترب أكثر، بخطوات سريعة هذه المرة، أصابعه تنقبض وتنفرج على جانبيه بلا توقف.

"أنت لا تعرف شيئاً عن هذا البيت"، قال بصوت يرتجف من غضبٍ يصعب عليه كبته، ورذاذ خفيف من الغضب تطاير مع الكلمة الأخيرة. "لا تعرف شيئاً عن معنى أن يكون لك بيت حقيقي".

"إذن علمني"، قال طه فجأة، بنبرة خفت قليلاً، وكأن شيئاً في داخله كان ينتظر هذه اللحظة بالذات ليقولها. ثبت عينيه في عيني ليل، دون أن تهربا، تمامًا كما تدرب مرارًا أمام تلك المرأة القديمة. "أخبرني لماذا هذا الكرسي بالذات. أخبرني الحقيقة كاملة، لا الألغاز التي تتركها معلقة كل مرة".

توقف ليل. بدا للحظة كمن يقاتل نفسه، كمن يقف أمام سدّ بناه بجهد سنواتٍ طويلة وبدأ يتشقق أمام سؤالٍ بسيط لا أكثر. تراجعت قدمه اليمنى خطوة صغيرة، بلا وعي منه، حركة جسدٍ يحاول الهروب قبل أن يقرر العقل شيئاً.

"أنت دفعت مالاً"، قال أخيرًا، وصوته يعلو أكثر فأكثر، كل كلمة تخرج وكأنها تُنزع من مكانٍ عميق. "مالاً جمعته من راتبٍ مريح، ووقّعت على ورقة، واشترت شقة. هذا كل ما فعلته".

أشار بإصبعه نحو طه، إصبع مرتجف قليلاً، ثم أشار به نحو صدره هو، وقد بدأت حبات عرق صغيرة تلمع عند منبت شعره.

"أما أنا"، توقف للحظة، وابتلع شيئاً يشبه غصة قديمة، تحركت تفاحة حلقه صعودًا ثم هبوطًا، "أنا دفعت عمرًا كاملاً. طفولة بلا اسم، وشبابًا بلا انتماء".

خفض صوته فجأة، لكنه ازداد قسوة، كل كلمة تسقط كحجر ثقیل في بئر.

"وهذا الكرسي، كان كرسي أمي حنان. آخر مكانٍ في هذا العالم جلستُ فيه وأنا أشعر أن لي أمًا".

سكت جزءًا من الثانية، عيناه تلمعان بشيءٍ لم يستطع طه تسميته بعد، ثم أكمل، وصوته يهبط إلى همسٍ مرتجفٍ: "ودفعت أكثر من ذلك. دفعت إنسانًا كريمًا قتلته بيديّ لأجل هذه الشقة بالذات، لأنها طلبت مني ذلك الثمن، وأنا دفعتُه دون أن أتردد".

سكت ليل فجأة، وارتسمت على وجهه صدمة داخلية واضحة، فمه لا يزال نصف مفتوح على الكلمة الأخيرة، وعيناه اتسعتا فجأة، كأنه سميع الاعتراف يخرج من فمه هو قبل أن يسمعه طه، وأدرك في اللحظة نفسها أنه لم يعد قادرًا على سحبه من الهواء. ارتفعت يده قليلًا نحو فمه، حركة نصف مكتملة، ثم سقطت مجددًا إلى جانبه، عاجزة عن فعل أي شيء يُصلح ما قيل.

ساد صمت ثقيل، لا يشبه أي صمتٍ آخر مرّ بينهما من قبل، صمتٌ يكاد يُسمع فيه صوت الساعة الصغيرة فوق الرف وهي تعدّ الثواني.

وقف طه بلا حراك، فمه نصف مفتوح، ويداه معلقتان على جانبيه، وقلبه يخفق بعنفٍ يكاد يسمعه هو نفسه في أذنيه. لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه للحظات طويلة، وكأن جسده كله ينتظر أمرًا من عقلٍ ما زال يعالج ما سمعه للتو.

ثم، حين تكلم أخيرًا، لم يكن صوته صوت رجلٍ مصدوم بخبرٍ جديد، بل صوت رجلٍ يؤكد شيئًا يعرفه منذ زمن. وربما كان هذا، أكثر من أي شيء

آخر، ما أربك ليل في تلك اللحظة: أن طه لم يتراجع، لم يفزع، لم تتسع حدقاته كما يُفترض بحدقتي رجلٍ يسمع للتو أن الشخص الذي يشاركه شقته قاتل.

"كنتُ أعلم، ولكن... أردتُ التأكد!"

ارتدَّ رأسُ ليلٍ إلى الخلف قليلاً، كأنما الجملة صفعته لا الاعترافُ نفسه. نظر إلى طه بذهولٍ جليٍّ وغير محسوب؛ ارتفع حاجباه وانفجرت شفاته دون أن يخرج منهما صوتٌ للحظة.

"كيف عرفت؟" سأل أخيراً بصوتٍ خفّت حتى صار أخفضَ من همسه السابق، في نبرةٍ استفسارية ترجو الفهم لا التحدي، وتراجع خطوةً إلى الوراء لا إلى الأمام، كمن يحتاج مسافةً ليتسع لها استيعابه.

أطال طه النظر فيه قبل أن يجيب، وتبدلت تعابيره ببطء من التوتر إلى هدوءٍ غريب... هدوءٍ رجلٍ ألقى عن كاهله أخيراً حملاً باهظاً ظل يكابده وحيداً لأسابيع.

"لن أخبرك الآن كيف"، قال طه بصوتٍ ثابت، "حاولت أن أثبت لنفسي أنني لست غيباً وساذجاً كما تصفني دائماً، فعرفت، لكن ضع هذا في حسابك أولاً: لن أذهب إلى الشرطة".

تجمد ليل في مكانه، وجال بصره في وجه طه كمن ينقب عن كذبةٍ لم يقع عليها بعد، ثم تساءل بصوتٍ خالطه الخوفُ الحقيقي لأول مرة منذ عرفه طه: "وما الذي يمنعك من الإبلاغ عني؟"

صمت طه لحظة، ونظر إلى عيني ليل مباشرة، دون أن ترفّ له عين، وقال بصوتٍ هادئ، بسيط، لا يحمل أي دراما زائدة، وكأنه يقول أبسط حقيقة في العالم:

"لأنك صديقي الوحيد".

لم يجب ليل. وقفنا كلاهما في منتصف الصالون، على بعد خطوة واحدة لا أكثر، ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة طويلة، ثقيلة، لا حركة فيها سوى ارتفاع صدريهما وهبوطه بأنفاسٍ متلاحقة. رمش ليل مرتين متتاليتين بسرعة، كمن يحاول طرد شيء عن عينيه، ثم بلع ريقه بصوتٍ يكاد يُسمع في ذلك الصمت الكثيف.

شعر طه برغبةٍ عارمة في أن يمدّ يده ويعانق ليل، ومدّ بالفعل نصف خطوة نحوه قبل أن يتوقف. وشعر ليل، في المقابل، برغبةٍ لا تقل عمقاً في أن يفعل الشيء نفسه، أن يستسلم، ولو للحظة واحدة، لذلك الدفع الذي لم يعرفه منذ موت حنان؛ ارتخت كتفاه قليلاً، وانفجرت أصابعه المقبوضة، ومال جسده بالكاد نحو طه، ميلاً لا يكاد يُلاحظ.

لكن لا أحد منهما تحرك أكثر من ذلك.

بقيا واقفين، على تلك المسافة القصيرة المستحيلة، حتى كسر ليل الصمت أخيراً بحركةٍ مفاجئة، حادة، وكأنه ينتزع نفسه بالقوة من مغناطيسيٍّ غير مرئي. استدار، وسار نحو الباب بخطواتٍ سريعة غير متزنة تماماً، وارتنى سترته بحركاتٍ آلية، أزرارها تفلت من بين أصابعه مرتين قبل أن يتركها مفتوحة، وخرج دون أن ينطق كلمة أخرى، ودون أن ينظر خلفه.

أوى طه إلى فراشه بعد دقائق قليلة، منهكاً من ثقل ما جرى، ونام نومًا سريعًا عميقاً لم يتوقعه من نفسه، وكأن جسده اختار أن يهرب من وطأة تلك اللحظة بأسرع طريقة ممكنة.

لم يكن ما قاله طه ليل تلك الليلة، حين رفض أن يشرح كيف توصل إلى الحقيقة، مراوغة عابرة. كان طه، منذ أسابيع، قد بدأ رحلة بحث صامتة لم يخبر بها أحدًا، لا ليل، ولا حتى نفسه بصوتٍ عالٍ.

بدأ الأمر بعد ليلة اعترافه الغامض لعمته وفاء بأن مصدر معلوماته عن انتحار والده هو "صديق يشاركه السكن"، وبعد أن رأى بأم عينه، خلف عمود إعلاني أمام السينما، ذلك التناقض الصارخ بين ليل المرح أمام الأطفال بزّيه الملون وليل البارد المحسوب داخل جدران الشقة. بدأ طه يفعل شيئًا لم يخبر به أحدًا، ولا حتى ليل نفسه: بدأ يبحث، بصبر معلم الرياضيات الذي لا يقبل مسألة دون حل، عن مصير الحاج كامل الحقيقي.

ذهب أولاً إلى أبي خالد، السمسار الذي باعه الشقة، وسأله بصيغة عرضية، وهو يتظاهر بالاهتمام ببعض أوراق الملكية القديمة، عن الحاج كامل، عن وجهته بعد البيع، عن أي عنوان تواصل به لاحقًا. تلعثم أبو خالد قليلاً، وحرّك عينيه بعيدًا عن عيني طه وهو يجيب، وقال إن آخر ما سمعه أن الحاج سافر فجأة إلى الخارج بعد توقيع البيع مباشرة، ولم يتواصل معه أحد منذ ذلك الحين، وإن هذا لم يثر قلقه لأن "كبار السن أحيانًا يفعلون هذا حين يفقدون من يحبون".

لم يقتنع طه. عاد إلى أم زهير، وسألها بحذر عن تفاصيل ليلة اختفاء الحاج، فروت له مرة أخرى، بتفاصيل أدق هذه المرة، وهي تشد شالها الصوفي حول كتفيها كمن تحمي نفسها من برد الذكرى نفسها، أنها سمعت صوت باب يُغلق بقوة في تلك الليلة، وأنها، حين استفسرت لاحقًا لدى أقارب الحاج البعيدين الذين جاءوا لتصفية بعض أوراقه، عرفت أن ابنة أخيه التي "سافر إليها" لم تسمع منه شيئًا هي الأخرى منذ ذلك التاريخ، وأن الأسرة اكتفت بافتراض أنه غير رقمه أو انقطع بمحض إرادته، إذ لم يكن رجلًا محبًا للتواصل بعد وفاة زوجته.

جمع طه هذه الخيوط المتناثرة في رأسه، ليلة بعد ليلة، كما يجمع الأرقام المتناثرة في مسألة صعبة على السبورة، وشعر بيقين بارد يتشكل في صدره، لا دليلاً قاطعاً بعد، لكن شكاً يكفي لأن يسقط قطعة أخيرة في مكانها: ليل، الذي يعرف كل تفصيل في هذه الشقة وكأنه سكنها طويلاً، مكان أنبوب المياه، اتجاه النافذة الأفضل للتهوية، الذي يمتلك مفتاحاً مصداً لا يفارقه محفظته أبداً، الذي غضب غضباً غير مفهوم من مجرد اقتراح استبدال كرسي جلدي قديم؛ ربما لم يكن يوماً زائراً عابراً لهذا المكان.

لم يواجه طه ليل بهذا الشك مباشرة حين تشكّل لديه أول مرة. احتفظ به، كما يحتفظ رجلٌ بحلٍّ توصل إليه في مسألة صعبة قبل أن يكتبه على السبورة أمام الجميع، منتظراً اللحظة المناسبة، أو ربما خائفاً، في عمق نفسه، من اللحظة التي سيُضطر فيها أن يقول الحقيقة بصوتٍ عالٍ لأول مرة.

في الشارع، وسط أضواء النيون وضجيج المارة أمام السينما، وقف ليل بزيّه البهلواني الكامل، وجهه المطلي يحمل ابتسامته المرسومة المعتادة، يمدّ البالونات للأطفال بحركاتٍ آلية، يصرخ عباراته المرحّة المعتادة بصوتٍ لا يحمل من الحياة إلا صداها الخارجي. لكن عقله كان بعيداً كل البعد عن ذلك الشارع، عالماً في تلك اللحظة الواحدة، في منتصف الصالون، حين قال طه تلك الجملة بهدوءٍ لم يتوقعه.

"لأنك صديقي الوحيد".

كررها ليل في رأسه مراراً، بينما كانت يده تربط بالوناً أزرق لطفلٍ صغير يتسم دون أن يرى الاضطراب خلف القناع الأبيض. شعر بشيء يتصدع

في داخله، شيء لم يشعر به منذ سنوات طويلة، منذ آخر مرة نظرت إليه فيها حنان بذلك الدفء الذي لا يُشترى.

لكن الحياة، تلك المعلمة القاسية التي لم تمنحه يومًا درسًا مجانيًا واحدًا، علّمتة أيضًا ألا يثق بأحد، مهما بدا صادقًا، مهما بدت كلماته حقيقية في لحظتها. فكّر ليل، بينما كان يخلع طبقة العرق المتصبب عن جبينه بمنديلٍ ورقي بين زبونٍ وآخر، يده ترتجف قليلًا وهي تمسح الطلاب الأبيض المتشقق عند حافة فكه، أن طه، حتى لو كان صادقًا الآن، يبقى خطرًا حَيًّا يمشي، يحمل سرًّا يكفي وحده لإرسال ليل إلى مكانٍ لا عودة منه. وأن الصدق، مهما بدا راسخًا في لحظة، قابلٌ للتغير، للانهيّار، للندم، تحت ضغط الخوف أو الذنب أو مجرد ليلة سيئة يقرر فيها طه أن الصمت ثقيلٌ أكثر مما يحتمل.

اتخذ ليل قراره ببرودٍ مألوف، بالمنطق البارد نفسه الذي اتخذ به قراره الأول مع الحاج كامل، دون أن يسمح لتلك الجملة الدافئة التي لا تزال تتردد في رأسه أن تغيّر شيئًا في حسابه الأخير: سيعود إلى الشقة، وسيمحو هذا الخطر، كما محّاه كل خطرٍ هدد يومًا استقراره الوحيد في هذا العالم.

الفصل العاشر

الليلة الأخيرة





عاد ليلٍ إلى البناية قبيل الفجر، بخطواتٍ هادئةٍ لا تشبه خطوات رجلٍ أنهى للتو ليلة عملٍ شاقة، بل خطواتٍ من اتخذ قراراً نهائياً ولم يعد بحاجةٍ للتردد فيه. صعد الدرج بلا صوت، حتى بلغ باب الشقة، وأدار المفتاح في القفل بحركةٍ بطيئةٍ محسوبة، دون أن يُصدر أدنى طققة.

دخل الصالون المظلم. كانت الشقة ساكنة تماماً، لا صوت فيها سوى تكتكة الساعة الصغيرة فوق الرف، وأنين خافت للرياح خلف زجاج النافذة. مرّ بجانب الكرسي الجلدي القديم، ذلك الكرسي الذي كاد يشعل بينهما حريقاً قبل ساعاتٍ قليلة، ولم يمنحه نظرة واحدة هذه المرة، وكأن كل ما يخصه من غضبٍ ووجعٍ قد استنفد بالكامل في تلك المواجهة، ولم يتبقَّ سوى الفعل نفسه، عارياً من أي انفعال.

اتجه نحو المطبخ، وفتح الدرج الذي يحتفظ فيه طه بأدواته، وأخرج منه سكيناً حادة، طويلة النصل، لامعة تحت الضوء الخافت المتسلل من نافذة المطبخ. أمسك بها بإحكام، ووقف لحظة في عتمة المطبخ، يتأمل النصل اللامع بعينين ساكنتين تماماً، لا أثر فيهما لتردد أو ندم، أو هكذا حاول أن يقنع نفسه.

سار نحو غرفة النوم بخطواتٍ لا تصدر صوتاً، ودفع الباب الموارب برفق، فانزلق دون أن يصرّ.

كان طه نائماً بعمق، متمدداً على جانبه، وجهه مسترخياً تماماً، أنفاسه بطيئة منتظمة، غافلاً كلياً عما يقترب منه في عتمة الغرفة.

اقترب ليل من حافة الفراش، ووقف هناك، بلا حركة، طويلاً، يراقب وجه طه النائم في الظلام بصمتٍ ثقیل، والسكین في يده لا تزال معلقة إلى جانب جسده. من محفظته، جاء صوتٌ خفيف، معدنيٌّ، كأن المفتاح المصدأ يلامس نسيج القماش كلما تحرك جسده ولو قليلاً.

اقتربت القطة الرمادية من الفراش بخطواتٍ صامتة، وحكّت جسدها الصغير بساق ليل، برفقٍ، طالبةً انتباهًا لم تجده تلك الليلة.

رفع ليل السكين ببطء، وثبتت نظره على وجه طه النائم، ذلك الوجه الذي منحه، لأول مرة منذ موت حنان، شعورًا يشبه الانتماء الحقيقي، وذلك الصوت الذي قال بهدوءٍ لا يُنسى: "لأنك صديقي الوحيد".

وقف ليل هناك، فوق الجسد النائم، بلا حركة، ليس ندمًا بالمعنى الذي يعرفه الناس العاديون، فليل لم يعرف الندم يومًا بهذا الشكل، بل شيئًا أقرب إلى توقّفٍ داخلي غير مسبوق، ارتباكًا صامتًا لم يشعر بمثله من قبل، حتى في أشد لحظاته برودة: هل هذا الإنسان النائم أمامه مجرد هدفٍ آخر، كالحاج كامل، عقبة يجب إزالتها لضمان الاستقرار؟ أم أن شيئًا ما، في مكانٍ لم يزره ليل منذ زمنٍ طويل جدًّا، قد تغيّر فعلاً؟

لا صوت سكين.

لا صرخة.

لا دم.

لا شيء سوى ظلام الغرفة، وأنفاس طه المنتظمة، سواء كان غارقاً في نومه أم يتظاهر به، فيما ليلٌ شاخصٌ بلا حراك، والسكین مُشرّعةٌ في قبضته، تجمدت في الهواء بين حدٍّ لم يُحسم بعد، ولحظةٍ ترفض أن تنتهي.

مہذا ما حدث



لبس كل من يعيش في بيت يملك بيتاً.
طه اشترى شقته ليكون فيها، أخيراً، وحيداً كما اعتاد
طوال حياته.

ثم بدأ يجد أشياء لا تخصه، فنجأنا لم يشره، مفتاحاً لا
يعرف بابيه، أثر جسد على كرسيه المفضل.
وفي مساء لا يشبه غيره، وجد نفسه يتحدث إلى
شخصي يعرف عنه أشياء لم يخبر بها أحداً.
هل يشاركه أحدٌ هذا المكان فعلاً؟ أم أن شيئاً في
داخله، ورثه بلا اختيار، بدأ أخيراً يطالبه بحساب لم
يُسدد؟

"واحد مثلاً" ليست حكاية رجل رأى غريباً في بيته
فحسب، بل سؤالاً لا مفرّ منه: أين ينتهي الرجل الذي
تعرفه، وأين يبدأ ذلك الآخر؟
الذي قد لا يكون، في نهاية الأمر، سوى واحد مثلاً.